منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1722)السنة السابعة -السبت (13) شباط 2010

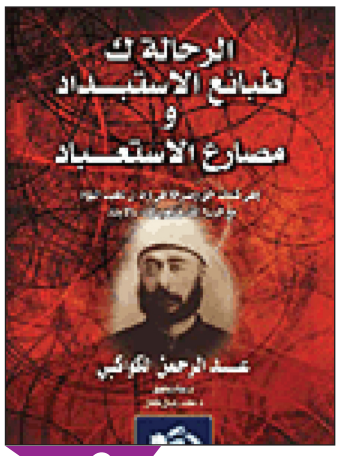

2

المرأة في فكر الكواكبي

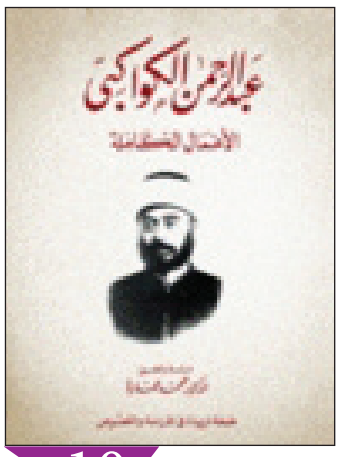

10

هكذا تكلم الكواكبي

14

رؤية الكواكبي لآفاق الغرب

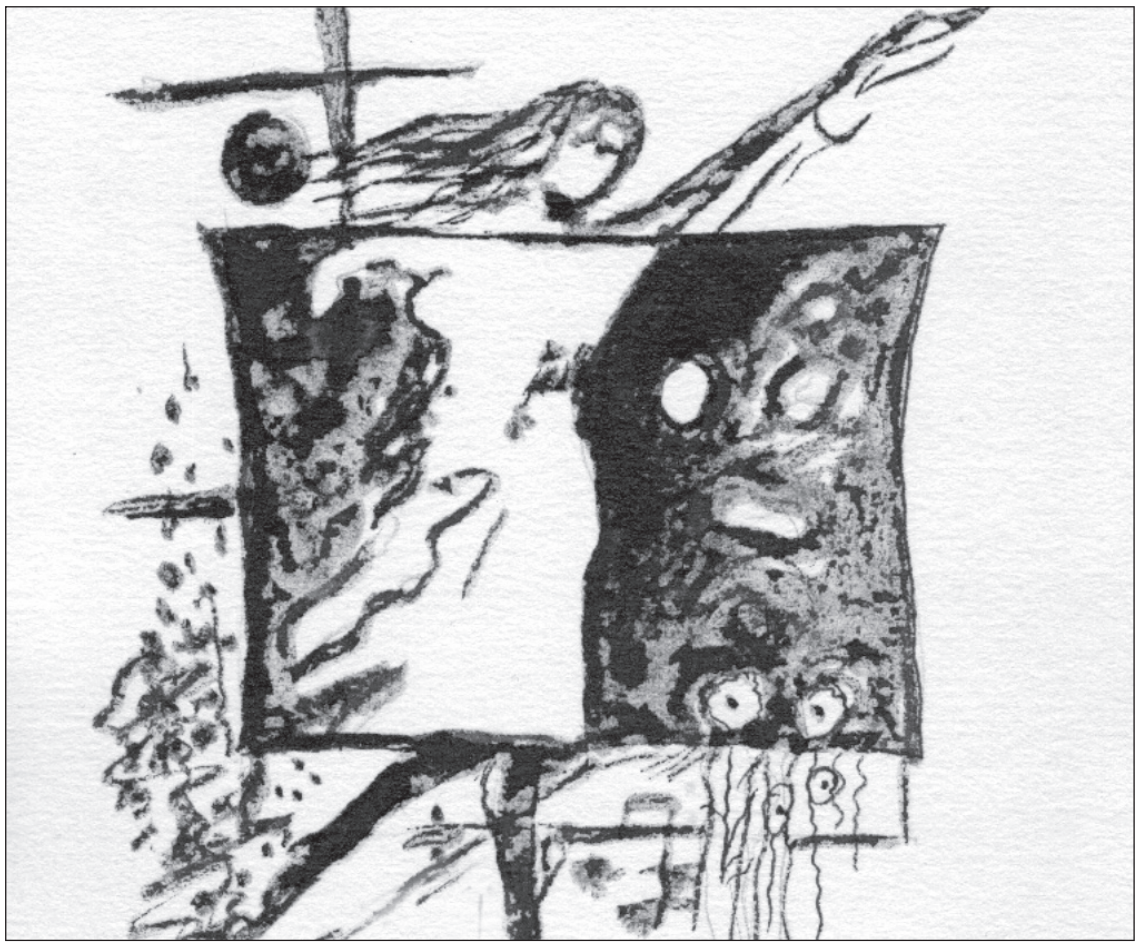

ربما كان بالإمكان اعتبار موقف أي مفكر من المرأة ومكانتها ودورها في المجتمع أحد أهم المؤشرات التي تعكس مستوى استنارة ذلك المفكر وتقدميته، ومدى قدرة المشروع الفكري الذي يطرحه على النهوض الفعلي بالمجتمع، انطلاقاً من حقيقة أن أي مشروع نهضوي جدي لا يمكن أن يجد طريقه إلى التحقق الفعلي ما لم يسند إلى المرأة المكانة التي تستحقها والأدوار التي يمكن أن تقوم بها في عملية بناء ذلك المشروع.

في هذه القراءة التحليلية لموضوعة المرأة في فكر الكواكبي، محاولة لتسليط الضوء على الموقف الذي اتخذه الكواكبي من المرأة، وطبيعة المكانة والأدوار التي كان يجدها خليقة بتقلدها ولعبها، ومحاولة لتقييم ما إذا كان ذلك الموقف متقدماً على المواقف النمطية التي كانت سائدة في المجتمع العربي في عصر الكواكبي إزاء المرأة ومتمايزاً عنها، أم أنه كان يدور ضمن حدود فلكها، مع بعض الاهتمام بإبراز الخلفيات الذاتية والموضوعية التي وقفت وراء تحديد موقف صاحب طبائع الاستبداد من المرأة. وفي سياق ذلك، ستتوقف الورقة عند النصوص الكواكبية - نسبة إلى الكواكبي - التي تناولت المرأة في سائر أعماله - وهي ليست بالكثيرة على أية حال - محللين تلك النصوص في إطار الغاية المعرفية التي تسعى الورقة إلى تحقيقها.

المرأة في فكر الكواكبي

خالد سليمان

أن العلاقة الدافئة المميزة بين الكواكبي وقريباته من النسوة لم تحل دون تبنيه نظرة غريبة إلى طبيعة المرأة، يغلب عليها الطابع السلبي، وتشي بقدر غير قليل من الارتباك والالتباس في فكر الرجل وتأثره بما اختزنته الثقافة الشعبية من شوائب تنتقص من مكانة المرأة وتنسب إليها بعض الصفات الحاطة لمكانتها مقارنة بالرجل

المرأة في الحياة الخاصة للكواكبي:

كثيرة هي الإشارات التي تؤكد أن علاقة حميمة متميزة قوامها الحب والمودة والاحترام كانت تجمع الكواكبي بقريباته النساء، وربما كان ذلك يعزى، بهذه الدرجة أو تلك، إلى القيم المبكرة التي غرستها فيه خالته (صفية) التي تولت تربيته وتعليمه في أنطاكية بعد رحيل أمه ولم يكد يتجاوز السادسة من عمره. وفيما يبدو، تركت تلك السيدة المتعلمة المثقفة بصماتها واضحة على نفسية الطفل الذي كانه الكواكبي، فجعلته يعامل المرأة في حياته العملية معاملة احترام وتوقير، دون أن ينعكس ذلك بالضرورة على موقفه الفكري من المرأة، كما سيتبدى لنا لاحقاً!

لقد كانت تجمع الكواكبي بزوجته (فاطمة) علاقة حب شديدة، وصفت من جانب إحدى سيدات العائلة بأنها علاقة "حب بين عاشقين"(١). بل إن نبأ الرحيل المفاجئ والمبكر للكواكبي كان مدعاة لاعتلال سريع في صحة زوجته التي انفطر فؤادها حزناً عليه بينما كانت تعد العدة للالتحاق به هي وأولادهما إلى القاهرة. ومن علائم العلاقة الاستثنائية بين الزوجين التي أسهمت شخصية الكواكبي الودودة في نسج خيوطها فرح (فاطمة) عندما أحست بدنو أجلها وقرب لحاقها به إلى العالم الآخر؛ إذ قالت لأولادها في أحد الأيام مستبشرة فرحة وهي على سرير المرض: "جاءتني البشرى فسأنضم إلى أبيكم بسرعة وقد اقترب موتي، حيث رأيته في نومي يقول لي تعالي لعندي فأنا سعيد جداً هنا"(٢). بل إنها أوصت لفرط حبها له أن يتم دفنها في قبر أمه كيما تشم رائحته من عظام أمه(٣).

ويظهر الود الذي يكنه الكواكبي لزوجته وبناته ولا يتردد في الإفصاح عنه بصورة واضحة في رسالة يرسلها لولده (أسعد) أثناء زيارته لإسطنبول(٤)، حيث يقول عن زوجته: "إذا هي نسيتنا فنحن لا ننساها، ولا تخرج من فكرنا لا في النهار ولا في الليل..."(٥)، وينهي رسالته لولده بقوله: "وحافظوا على توصياتنا لكم، خصوصاً من جهة كسب رضاء ودعاء والدتكم ومداراة وملاطفة خواتكم..."(٦).

وفي حادثة طريفة تبرز متانة العلاقة بين الكواكبي وبناته وحميميتها ووصولها إلى مستوى غير مألوف من التواصل الودود في تلك الفترة الزمنية التي حفلت بمظاهر التشدد في العلاقات الاجتماعية بوجه عام، نجده يرتدي ثوباً بدائياً غير متقن التفصيل من صنع ابنته (عفيفة) التي لم تكن قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها حينئذ، وعندما تطلب منه زوجته أن يخلعه فوراً لسوء حياكته، يصر على الاستمرار في ارتدائه قائلاً: "لن أخلع شيئاً خاطته لي ابنتي، وسأظل أفخر به"، لينتهي الجدال بأن تسمح له زوجته بارتدائه في البيت فقط، دون الظهور به أمام الغرباء(٧).

إلا أن العلاقة الدافئة المميزة بين الكواكبي وقريباته من النسوة لم تحل دون تبنيه نظرة غريبة إلى طبيعة المرأة، يغلب عليها الطابع السلبي، وتشي بقدر غير قليل من الارتباك والالتباس في فكر الرجل وتأثره بما اختزنته الثقافة الشعبية من شوائب تنتقص من مكانة المرأة وتنسب إليها بعض الصفات الحاطة لمكانتها مقارنة بالرجل.

طبيعة المرأة عند الكواكبي:

ظلت طبيعة المرأة وما إذا كانت مختلفة عن طبيعة الرجل محط الجدال في كثير من مجتمعات الدنيا على امتداد عمر البشرية. وعلى الرغم من أن الإسلام قد جاء ليؤكد وحدة الجنسين وانبعاثهما من نفس واحدة بحيث يتساويان مساواة كاملة في كرامتهما الإنسانية، إلا أن الثقافات الشعبية في كثير من المجتمعات، كما هي الحال في المجتمع العربي، ظلت تنتقص من قدر المرأة وتجعل من طبيعة شقيقها الرجل الأنموذج المثالي الذي يتم الاحتكام إليه كمعيار أساسي في تحديد ما هو محبذ من خصائص وسمات ينبغي أن تنسحب أيضاً عليها؛ حتى تكون أهلاً لوصفها بالسواء والطبيعية والاكتمال!. ويبدو أن مفكرنا الكواكبي لم يسلم من التأثر بمكونات تلك الثقافة الشعبية المتغلغلة عميقاً في ثنايا الوعي العربي

على الرغم من طرافة فكرة الكواكبي حول تقسيم العمل القائم بين الرجال والنساء، وتصويره تلك الفكرة بقالب هزلي تهكمي، إلا أن من الواضح أن الرجل يقلب حقائق التاريخ وينسفها معيداً كتابتها بطريقة ربما لم يسبقه أحد إليه

على الرغم من ثقافته الدينية الواسعة ورحابة أفقه الإنساني، فنجده مثلاً يعزو عدم أهلية كثير من سلاطين بني عثمان للحكم إلى جملة من الأسباب منها: قضاء معظم أوقاتهم قبل تقلدهم الحكم وبعده في معاشرة السراري والجواري والإماء؛ ما أفضى إلى أن تتغلب "على طباعهم خصائص النساء، من شدة الحلم، وسلامة الصدر، والميل إلى المشاحنة، والغلو في الزينة الظاهرية، والاعتماد في تكريم الناس على شرف المنتسبين إليهم.. إلى غير ذلك من صفاتهن"(٨).

وبغض النظر عما إذا كان الكواكبي يعتبر أن تلك الخصائص مكونات أصيلة ثابتة أم مكتسبة متحولة في طبيعة المرأة، فإن خطابه السالف يضمر شكلاً من أشكال النظرة الدونية إلى المرأة، وذلك بدعوى حيازتها خصائص تنزع عمن يحملها الجدارة لتقلد مراكز الحكم!.

وحول طبيعة المرأة أيضاً مقارنة بطبيعة الرجل، يواصل الكواكبي تنظيراته بصورة اعتسافية قد لا يسندها أساس علمي موضوعي، مستمداً من الثقافة الشعبية بعض مقولاتها الشائهة التي تصور المرأة كائناً مراوغاً ومحتالاً ومسكوناً بالدهاء، فيقول في فقرة عجيبة غريبة كأنها تستحضر كيد النساء ومكرهن في رواية من روايات ألف ليلة وليلة: "إن الرجال ميالون بالطبع إلى زوجاتهم، والمرأة أقدر مطلقاً من الرجل في ميدان التجاذب للأخلاق، ولا يتوهم عكس ذلك إلا من استحكم فيه تغرير زوجته له بأنها ضعيفة مسكينة مسخرة لإرادته، حال كون حقيقة الأمر أنها قابضة على زمامه تسوقه كيف شاءت، وبتعبير آخر يغرّه أنه أمامها وهي تتبعه، فيظن أنه قائد لها، والحقيقة التي يراها كل الناس من حولهما دونه أنها إنما تمشي وراءه بصفة سائق لا تابع(٩).

وفي أطروحة طافحة بالسخرية اللاذعة يضرب صاحب طبائع الاستبداد. مع الأسف الشديد. بعيداً في بيداء التجني على المرأة والتحامل عليها والاستبداد بها، زاعماً أن استبدادها بالرجل هو من ضمن مقدمات "تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمي بقلاع الاستبداد السياسي"(١٠)، فنجده يقول: "إن البشر المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون نصفهم كلّ على النصف الآخر، ويشكل أكثرية هذا النصف الكلّ نساء المدن.

ومَن النساء؟ النساء هن النوع الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنه هو الحافظ لبقاء الجنس، وأنه يكفي للألف منه ملقح واحد، وأن باقي الذكور حظهم أن يساقوا للمخاطر والمشاق أو هم يستحقون ما يستحقه ذكر النحل، وبهذا النظر اقتسمت النساء مع الذكور أعمال الحياة قسمة ضيزى؛ وتحكمن بسن قانون عام به جعلن نصيبهن هين الأشغال بدعوى الضعف، وجعلن نوعهن مطلوباً عزيزاً بإيهام العفة، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدتين في الرجال، وجعلن نوعهن يُهين ولا يهان ويَظلم أو يظلم فيعان؛ وعلى هذا القانون يربين البنات والبنين، ويتلاعبن بعقول الرجال كما يشأن حتى أنهن جعلن الذكور يتوهمون أنهن أجمل منهم صورة. والحاصل أنه قد أصاب من سمّاهن بالنصف المضر! ومن المشاهد أن ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقي المضاعف. فالبدوية تشارك الرجل مناصفة في الأعمال والثمرات فتعيش كما يعيش، والحضرية تسلب الرجل لأجل معيشتها وزينتها اثنين من ثلاث وتعينه في أعمال البيت، والمدنية تسلب ثلاثة من أربعة وتود أن لا تخرج من الفراش، وهكذا تترقى بنات العواصم في أسر الرجال.

وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوروبا أن تسمى المدنية النسائية لأن الرجال فيها صاروا أنعاماً للنساء"(١١).

على الرغم من طرافة فكرة الكواكبي حول تقسيم العمل القائم بين الرجال والنساء، وتصويره تلك الفكرة بقالب هزلي تهكمي، إلا أن من الواضح أن الرجل يقلب حقائق التاريخ وينسفها معيداً كتابتها بطريقة ربما لم يسبقه أحد إليه! فهو يجعل من إجبار المرأة على الانكفاء في بيتها وإفناء شبابها وصحتها في أعمال منزلية مرهقة ومملة ومغلقة للأفق، وفي مناكفة الأبناء واحتمال مشاكساتهم، دون أن تنال من التقدير أو الأجر الحد الأدنى الذي يتناسب مع ضخامة أعبائها، يجعل من كل ذلك امتيازاً تحايلت المرأة من أجل خداع الرجل والاستئثار به! متناسياً أن الرجل هو الذي قام بسنّ ذلك القانون المجحف بحق المرأة وفرضه عليها بذريعة الحفاظ على الشرف. ولو وجد أن ذلك القانون يضر بمصالحه وامتيازاته، وهو صاحب الأمر والنهي في واقع الأمر، لسارع إلى نقضه وتبديله، وهذا ما يجرى فعلاً في أيامنا، فبعد أن اكتشف الرجل أن بالإمكان تطوير ذلك القانون ليزيد من مكاسبه ويخفف من التزاماته، عمد إلى تطويع القانون بحيث أجبر المرأة على الخروج من البيت للعمل المأجور خارجه، ضارباً الصفح عن مزاعمه القديمة بشأن الشرف التليد، دون أن يجعل المرأة في حل من شيء من التزاماتها المنزلية المألوفة، لتصبح المسكينة خادمة في البيت وخارجه!.

ومما يثير الاستغراب والدهشة أن الكواكبي، وهو العالم الفقيه المتضلع في أمور الدين، لا يكتفي بطروحاته الظالمة تلك بخصوص طبيعة المرأة، بل إنه أيضاً يقحم الشريعة نفسها في عملية إثبات صحة أفكاره دون توافر ما يسوغ ذلك من أدلة شرعية، إن لم تتعارض تلك الأفكار مع الأدلة الشرعية ذاتها! فهو فيعزو بعض أوامر الشريعة المتعلقة بالمرأة إلى وعي الشرع بدهاء المرأة قبل أي شيء آخر! قائلاً: "وما قدّر دهاء النساء مثل الشريعة الإسلامية، حيث أمرت بالحجب والحجر الشرعيين حصراً لسلطتهن وتفرغهن لتدبير المنزل، فأمرت باحتجابهن احتجاباً محدوداً بعدم إبداء الزينة للرجال الأجانب، وعدم الاجتماع بهم في خلوة أو لغير لزوم. وأمرت باستقرارهن في البيوت إلا لحاجة. ولا شك أنه ما وراء هذه الحدود إلا فتح باب الفجور، وما هذا التحديد إلا مرحمة بالرجال وتوزيعاً لوظائف الحياة"(١٢).

بكل تأكيد، لا يمكن أن تكون الشريعة الإسلامية قد انطلقت في ذهابها إلى وجوب ستر المرأة وتقييد اختلاطها غير المبرر مع الأغراب من أرضية افتراض الدهاء في المرأة، ففي هذا حكم سلبي جائر لا يمكن للشريعة السمحة أن تتورط بإطلاقه على النساء، هؤلاء اللواتي كرمهن الله جل جلاله ككل ولد آدم بقوله عز من قائل: "ولقد كرمنا بني آدم..."(١٣)، وأكد عدم اختلافهن في الأصل عن أشقائهن الذكور بقوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(١٤)، وشدد على عدم التفريق بينهن وبين الرجال في الحساب فقال جل ثناؤه: "ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً"(١٥).

ويستمر الكواكبي وبما يستثير المزيد من الدهشة في مسلسل تحامله على المرأة، محاولاً إضفاء مسحة دينية على أفكاره لمنحها بعض الشرعية فيقول: "وقد أمرت الشريعة برعاية الكفاءة في الزوج، وذلك أيضاً مرحمة بالرجال. وأكثر الأئمة المجتهدين أغفلوا لزوم تحري الكفاءة في جانب المرأة للرجل، وأوجبوا أن يكون هو فقط كفوءاً لها كي لا تهلكه بفخارها وتحكمها. على أن لرعاية الكفاءة في المرأة للرجل أيضاً موجبات عائلية مهمة، منها: التخير للاستسلام والتخير لتربية النسل، وللتساهل في ذلك دخل عظيم في انحلال الأخلاق في المدن، لأن التزوج بمجهولات الأصول أو الأخلاق، أو بسافلات الطباع والعادات، أو بالغريبات جنساً أو الرقيقات، مفاسد شتى. لأن الرجل ينجر طوعاً أو كرهاً لأخلاق زوجته، فإن كانت سافلة يتسفل لا محالة، وإن كانت غريبة بغضته في أهله وقومه، وجرّته إلى موالاة قومها والتخلق بأخلاقهم. ولا شك أن هذه المفسدة تستحكم في الأولاد أكثر من الأزواج"(١٦).

في الوقت الذي نتفق فيه مع الكواكبي فيما ذهب إليه من القول بأهمية أخذ مسألة الكفاءة في المرأة للرجل بعين الاعتبار، إلا أننا نجد في خطابه تشدداً مبالغاً به وجمعاً غير مستساغ بين فئات من النساء يصعب الجمع بينهن، فهو يضع "سافلات الطباع والعادات" في سلة واحدة مع "الغريبات جنساً أو الرقيقات"، معتبراً أن في الزواج منهن جميعهن "مفاسد شتى"، وفي هذا ما فيه من مجافاة الحق والابتعاد عن الصواب؛ فلقد تزوج الرسول الكريم (محمد) عليه الصلاة والسلام الذي يجسد لمعاشر المسلمين أسوة حسنة بنص القرآن الكريم(١٧) من (صفية بنت حيي بن أخطب) ابنة أحد ألد أعداء المسلمين من اليهود، كما اقترن بـ (مارية القبطية) التي أهداها إليه (النجاشي) ملك الحبشة، فلم تكونا سبباً في تبغيضه عليه السلام في أهله وقومه، أو جره. وحاشاه أن ينقاد إلى ذلك. إلى موالاة قوميهما والتخلق بأخلاقهم!.

نرجح أن من الممكن فهم ما تظهره بعض نصوص الكواكبي من نقمة على النساء بوجه عام، و"الغريبات جنساً أو الرقيقات" بوجه خاص، ومساواة هؤلاء الأخيرات بالنساء "سافلات الطباع والعادات" بالافتراض أن الكواكبي كان يعاني من حقد دفين كامن، ربما في اللاشعور عنده، تجاه الدور الخطير الذي لعبته الجواري والإماء من "الغريبات جنساً" في التاريخ الإسلامي على صعيد إضعاف الكثير من ممالك الحكم العربي والإسهام في إخضاعها إلى حكم عناصر غير عربية. متذكرين هنا أن الكواكبي هو سليل أسرة ملكية عريقة هي الأسرة الصفوية العربية التي حكمت إيران حيناً من الدهر ودافعت عنها ضد الأتراك العثمانيين!

وفي هذا السياق، لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن الكواكبي يمارس آلية من آليات الدفاع النفسي، فكأنه يطعن في الدولة العثمانية نفسها عبر طعنه في النساء "الغريبات جنساً"، وبخاصة أنه يعدّ انقياد خلفاء تلك الدولة لأهواء جواريهم سبباً رئيساً في انحطاط أوضاع الدولة وغرقها في الظلم والاستبداد. فهو يقول في هذا الصدد مشدداً ومتوسعاً فيما أورده في مقام آخر: "وربما كان أكبر مسبب لانحلال أخلاق الأمراء من المسلمين أتاهم من جهة الأمهات والزوجات السافلات، إذ كيف يرجى من امرأة نشأت سافلة رقيقة ذليلة أن تترك بعلها، وهو في الغالب أطوع لها من خلخالها، أن يجيب داعي شهامة أو مروءة؟ أو أن تغرس في رؤوس صبيتها أميالاً سامية، أو تحمسهم على أعمال خطرة؟ كلا لا تفعل ذلك أبداً. إنما تفعله الشريفات اللاتي تجدن في أنفسهن عزة وشهامة، وهذا هو سر أن أعاظم الرجال لا يوجدون غالباً إلا من أبناء وبعول نسوة شريفات أو بيوت قروية. وهذا هو سبب حرص أمراء العرب والإفرنج على شرف الزوجات"(١٨).

تحت مظلة كراهيته العميقة للنساء الأجنبيات "الغريبات جنساً" اللواتي أسهمت مؤامرات بعضهن في الإطاحة بحكم بعض الأسر العربية في العالم الإسلامي أو تغليب عناصر غير عربية أو مختلطة على تلك الأسر، وانحيازه المبالغ به للعرب(١٩)؛ نجد الكواكبي يلوي عنق الحقيقة في خطابه السابق، متجاهلاً وقائع التاريخ لإثبات صحة وجهة نظره، فقد عرف التاريخ الإسلامي عدداً من الخلفاء والأمراء البارزين الذين لعبوا أدواراً مهمة في التاريخ الإسلامي، على الرغم من انتماء أمهاتهم إلى أصول غير عربية، كالخليفة المأمون، والخليفة المعتصم، والخليفة المهتدي على سبيل المثال. بل إن أجزاء من العالم الإسلامي قد حكمت في بعض الفترات من جانب أمراء لا ينتمون على الإطلاق إلى العنصر العربي إثنياً، غير أنهم استطاعوا تسجيل أسمائهم بحروف من ذهب في الصفحات المجيدة لحضارتنا العربية الإسلامية، مثل نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس ...الخ، هؤلاء القادة الذين ما يزال لسان التاريخ يلهج بالثناء على مآثرهم وأياديهم البيضاء التي قدموها للإسلام والعروبة.

وضمن هذا المدار التحليلي، ومع ملاحظة التحيز السافر من الكواكبي للعرب وتعريضه، ولو غير المباشر، بالعناصر غير العربية، واهتمامه الكبير بقيام خلافة إسلامية يتزعمها العرب، ربما كان بالإمكان القول إنها لم تكن صدفة أبداً أن يعتبر الباحث المتعمق في دراسة فكر الكواكبي (محمد جمال الطحان) أن الرجل هو "واحد من أهم مفكرينا القوميين المتنورين الإسلاميين في القرن الماضي"(٢٠)، إن لم يكن وفق تحليل باحث آخر صاحب ما قد يمكن عدّها "أول دعوة فكرية وسياسية عربية شاملة قومية صريحة ومنظمة..."(٢١).

وفي نص آخر للكواكبي، نشتم رائحة مباركة ضمنية للحجر على المرأة وتكبيل حرياتها، فهو يقول بما يمكن فهمه ضرباً من ضروب الإعجاب بممارسة صينية قديمة: "والصينيون، وهم أقدم البشر مدنية، التزموا تصغير أرجل البنات بالضغط عليها لأجل أن يعسر عليهن المشي والسعي في إفساد الحياة الشريفة. ذاك الشرف الذي هو من أهم مقاصد الشرقيين، بخلاف الغربيين الذين لا يهمهم غير التوسع في الماديات والملذات"(٢٢).

ناهيك عن المغالطة التعميمية التي يقع فيها الكواكبي بوصف الغربيين بأنهم لا يكترثون إلا بالتوسع في الماديات والملذات مقارنة بالشرقيين الذين يضعون الشرف في مقدمة أولوياتهم، فإنه يقع في مصيدة التغني بفكرة تقليدية شائهة ما تزال حاضرة في مجتمعنا العربي، تختزل بدورها مفهوم الشرف ضمن حدود بالغة الضيق قد لا تتجاوز حدود الأنثى، وربما حدود الجسد الأنثوي على وجه التحديد، جاعلة من شرف المرأة وحده دون شرف الرجل رمزاً لشرف الجماعة ومعياراً له، مع ما يرتبط بهذا ويترتب عنه من تقييد حريات المرأة وفرض الوصاية عليها وتعريضها إلى كثير من صور الوأد الرمزي المعنوي والمادي الحقيقي!

وعلى الرغم من رجعية تلك النظرة التي تتواطأ مع بعض شوائب الموروث الثقافي للنيل من مكانة المرأة ونعتها بما ليس فيها من صفات قد تنطبق على كثير من الرجال، إلا أن الكواكبي يعود ليدافع عن نظرة تقدمية محمودة فيما يتعلق بمسألة تعليم المرأة، وهو ما يعكس قدراً من الضبابية وعدم الانسجام، وربما التضارب، في مكونات النظرة الكلية التي يحملها الكواكبي تجاه المرأة: طبيعةً ومكانةً وأدواراً.

الكواكبي ثائراً
١٩٨٦

لمحة عن حياة الكواكبي:

ولد الكواكبي في حلب (١٨٥٥) لأسرة عربية، تمتد جذورها إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع) من جهة الوالدين(١)

توفيت والدته عفيفة آل النقيب وعمره ست سنوات، فكفلته خالته صفية واصطحبته إلى بيتها في أنطاكية، حيث بقي هناك ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى حلب، ليتعلم فيها على يد الشيخ "طاهر الكلزي" وبعد أن تعلم القراءة والكتابة، وأتم قراءة القرآن وحفظه، عاد إلى خالته، كي ترعى تنمية علومه، فاستعانت بقريبها "نجيب النقيب" (أصبح فيما بعد أستاذا للخديوي عباس الذي كان على عرش مصر حين لجأ إليها الكواكبي).

وحين أتمّ تعليمه هناك، عاد إلى حلب ليتابعه بالعربية والفارسية، بعد أن أتقن التركية في أنطاكية، فدرس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسة الكواكبية، التي كانت تتبع مناهج الأزهر في الدراسة.

عبد الرحمن الكواكبي
فـــارس النـــهـــضـــة والأدب

د:ماجد حمود

الكواكبي شغل مناصب عامة كثيرة، دون أن تفلح الدولة في جعله تابعا لها، أو تغيير منهجه في نصرة الحق وخدمة المصالح العامة، لذلك سيواجه المتاعب في كل أعماله، وسيحاربه كل المستفيدين من الفساد والتسيّب، فحين عين رئيسا لبلدية حلب (في زمن الوالي الذي كان مقدرا لمواهبه عثمان باشا ١٨٩٣) قام بمشاريع عمرانية

وكان يشرف عليها ويدرّس فيها والده مع نفر من كبار العلماء،لم يكتفِ الكواكبي بالمعلومات المدرَسية، فقد اتسعت آفاقه أيضا بالاطلاع على كنوز المكتبة الكواكبية التي تحتوي مخطوطات قديمة وحديثة، ومطبوعات أول عهد الطباعة، فاستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمع والتاريخ والفلسفة...الخ.

لاشك أن هذه الثقافة المنفتحة التي تمتع بها الكواكبي بالإضافة إلى التربية الإسلامية منحته شخصية متميزة.

عمله الصحفي:

بدأ حياته بالكتابة إلى الصحافة، ويرجح حفيده (سعد زغلول الكواكبي) أن جده عمل في صحيفة "الفرات" الرسمية سنتين لا أكثر، وقد ترك العمل فيها نظرا لمعاناته (الرقابة، الاضطهاد لكونه لا يمدح السلطة...).

وقد أحس أن العمل في صحيفة رسمية يعرقل طموحه في تنوير العامة وتزويدها بالأخبار الصحيحة، لذلك رأى أن ينشئ صحيفة خاصة لاعتقاده أنه يستطيع الكتابة فيها بحرية أكبر من الصحيفة الرسمية للدولة، فأصدر صحيفة "الشهباء" (عام ١٨٧٧) باسم صديق له (هاشم العطار) كي يفوز بموافقة السلطة العثمانية، لأنه لو طلب الترخيص باسمه لما فاز به، وكان عمره آنئذ حوالي اثنين وعشرين عاما!

لم تستمر هذه الصحيفة طويلا، عطلت ثلاث مرات قبل أن تغلق بشكل نهائي بعد صدور العدد السادس عشر، إذ لم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد، فالحكومة كما يقول الكواكبي نفسه "تخاف من القلم خوفها من النار".

تابع جهاده الصحفي فأصدر (عام ١٨٧٩) باسم صديق آخر جريدة الـ"اعتدال" سار فيها على نهج "الشهباء" فعطّلتها السلطة، فتابع الكتابة في صحف عربية تصدر في بلدان عربية وغربية ("النحلة" بنسختيها العربية والإنكليزية، و"الجنان" و"ثمرات الفنون" و"الجوائب" و"القاهرة" والمؤيد"..)

كان قلمه نصير الحق، يقف إلى جانب المظلوم بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي، لذلك وجدناه يشرّع قلمه في وجه المستبد، فينقد تصرفاته وتهاونه تجاه مواطنيه، فكتب مقالا ينتقد فيه عدم قبول بعض المسيحيين في الجيش العثماني إلا بعد اشتراط تغيير أسمائهم بأسماء إسلامية!!

المهن التي زاولها الكواكبي:

بعد أن تعطّلت صحيفتاه، انكبّ على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعيّن عضوا في لجنتي المالية والمعارف العمومية، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضوا فخريا في لجنة امتحان المحامين، وفي سنة ١٨٨٦ صار مأمورا للإجراء.

وبعد أن أحس أن السلطة تقف في وجه طموحاته، وتعرقل مشاريعه، بل وصل الأمر بها إلى عزله وقطع رزقه، لذلك انصرف إلى العمل بعيدا عنها، فاتخذ مكتبا للمحاماة في حي (الفرافرة) قريبا من بيته وسراي الحكومة يستقبل فيه المظلومين من سائر الفئات وسائر أنواع الظلم، فيسعى إلى تحصيل حقوقهم ورفع ظلاماتهم بكتابة الشكاوى وإرشادهم إلى طرق الاحتجاج القانوني، وقد كان يؤدي عمله، في معظم الأحيان، دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر بلقب (أبي الضعفاء)

ولكن إلى جانب هذا العمل الخاص نجد الكواكبي قد شغل مناصب عامة كثيرة، دون أن تفلح الدولة في جعله تابعا لها، أو تغيير منهجه في نصرة الحق وخدمة المصالح العامة، لذلك سيواجه المتاعب في كل أعماله، وسيحاربه كل المستفيدين من الفساد والتسيّب، فحين عين رئيسا لبلدية حلب (في زمن الوالي الذي كان مقدرا لمواهبه عثمان باشا ١٨٩٣) قام بمشاريع عمرانية، كما حاول الحفاظ على سوق المدينة الأثري، فأقام أعمدة حديدية تحول دون دخول الجمال إلى السوق التي كانت تصدم المارة وتملؤه أوساخا، درس مشروع سد الفرات، وتجفيف مستنقعات الروج، وكلّف بعض المهندسين باستثمار (حمامات الشيخ عيسى) بعد تجميلها وترميمها، وقد كانت المكافأة التي تلقاه الكواكبي على إصلاحاته هي العزل، فقد ضجّ التجار الذين منعت دوابهم من دخول السوق، ولم يكتفِ الوالي بعزله، بل غُرّم قيمة الأعمدة الحديدية، وفروق رواتب موظفي البلدية التي زادها لهم قطعا لدابر الرشوة!!

ثم تسلّم رئاسة المصرف الزراعي، ورئاسة غرفة التجارة في حلب، فأسس شركة للتبغ بالتعاون مع تجار حلب، كي يخفف الضغط على الفلاحين، بالإضافة إلى قيامه

بإصلاحات أخرى تضرر منها أصحاب السلطة، الذين كانوا يشاركون المهربين في تهريب التبغ، فأحرقوا مواسم الفلاحين من هذا المحصول، فاضطر الكواكبي إلى حلّ الشركة ودفع قيمة الأسهم المستحقة من جيبه الخاص!!
في عام (١٨٩٤) تسلم وكالة المحكمة الشرعية بحلب، فاستطاع أن ينظّم ديوان المحكمة، ويحارب شهود الزور الذين يجلسون أمام المحكمة على المصطبة متظاهرين بالتدين (كانوا يدعون بشهود المصطبة) فحاربه هؤلاء وغيرهم من الفاسدين حتى عزل.
بعد ذلك عين رئيسا للجنة بيع حق الانتفاع من الأراضي الأميرية (التي أصدر السلطان أمرا بتملكها هو وورثته) فبدأ الكواكبي يوزعها على الفقراء ويحجبها عن المتسلطين من رجال الدولة، لذلك عملوا على الإسراع بإقالته! .

معاناة الكواكبي مع السلطة العثمانية:

عرف الكواكبي بمقالاته، سواء في حلب أم في خارجها، التي تفضح فساد الولاة، لذلك ناصبه هؤلاء العداء، ولم يوفروا أية فرصة لإيذائه، فقد استغلت السلطة محاولة اغتيال (أو بالأحرى تهديد) والي حلب (جميل باشا) من قبل شاب (أرمني) يتدرب على المحاماة في مكتب الكواكبي، فألقت القبض عليه بتهمة التحريض على قتل الوالي، لكنه خرج من هذه التهمة بريئا، رغم ذلك لم يتخلص من مضايقات والي حلب، فقد اتهمه الوالي (عارف باشا) بالتآمر مع الأرمن لإثارة المشاكل في حلب، وقد استغل حادثة تعرض القنصل الإيطالي للإصابة بحجر قرب بيت الكواكبي، ليثبت هذه التهمة، فقبض عليه وصودرت أملاكه، وحكم عليه بالإعدام في محكمة حلب، وكان رئيسها من أعوان الوالي، فقدم الكواكبي استئنافا لإعادة محاكمته في بيروت، نظرا للخلاف بينه وبين الوالي، حيث بُرّيء وعُزل الوالي، بعد أن عانى الكواكبي من السجن مدة عام تقريبا في حلب وبيروت.
لم تكتفِ السلطة بمصادرة حريته الصحفية بمنعه من إصدار صحيفة، ومصادرة حريته الشخصية بالسجن والاستيلاء على أملاكه، بل وصل الأمر بالاستبداد أن اغتصب منه نقابة الأشراف، وأعطاها لأبي الهدى الصيادي الذي زوّر انتسابه لآل البيت، مع أنه من المعروف أن نقابة الأشراف تتوارثها أسرة الكواكبي في حلب والأستانة وبغداد، باعتبارهم من آل البيت من جهتي الأم والأب منذ أيام أحمد الكواكبي في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، وقد كانت نقابة الأشراف مغتصبة من ابن عمه الأكبر منه سنا (حسن الكواكبي) من قبل الصيادي صديق السلطان عبد الحميد ونديمه الأثير!
بعد وفاة ابن عمه استحق عبد الرحمن الكواكبي نقابة الأشراف، وكان يعدّ نفسه وأهل حلب أيضا النقيب الحقيقي وإن لم يصدر أمر سلطاني بذلك، لأن النقابة تكون في الأكبر سنا من أفراد الأسرة المؤهل علميا واجتماعيا.
اعترض على تزوير نسب الصيادي لآل البيت، بل نجده يحرج أبا الهدى الصيادي أمام جمع من الناس أتوا لتهنئته بمناسبة خروجه من السجن، حين قال له "الحمد لله على السلامة يا بن العم" فردّ عليه أمام الناس جميعا "وعليك السلام لكن ابن العم هذه من أين أتيت بها؟" قاطعا عليه طريق الاعتراف بنسبه إلى آل البيت، مبطلا ادعاءه أمام الناس جميعا، ومن المعروف أن النسب إلى آل البيت يحتاج إلى تصديق ممن يعدّون أنفسهم يمثلونه، وقد كان عبد الرحمن يمثلهم خير تمثيل، لهذا كان إحراجه للصيادي كبيرا، سيردّه له أذى مضاعفا.
لم تكن ثورة الكواكبي على الصيادي بسبب اغتصابه نقابة الأشراف فقط، وإنما كانت بسبب أعماله وظلمه للرعايا، فقد استغل تأثيره الكبير على السلطان عبد الحميد في اضطهادهم، ولهذا من الطبيعي أن يكون الصيادي أحد الذين كادوا له وأوصلوه إلى منصة الإعدام، وهذا ما أشار إليه الكواكبي في مرافعته ببيروت.
ضيق الاستبداد الخناق على الكواكبي، حتى كان يقترض ليعيش بعد أن صودرت أملاكه، ومنع من مزاولة أي عمل، رغم ذلك لم تستطع السلطة شراءه بالمناصب، فرأت أن تتخلص منه، بعد أن أصبح شخصية مؤثرة في حلب، بل امتد تأثيره إلى سائر البلاد العربية، بسبب مقالاته التي كان يرسلها إلى الصحف العربية، لذلك أرسلت له شخصا ملثما لاغتياله، وفعلا طعنه أثناء عودته إلى بيته ليلا، بعد هذه الحادثة التي نجا منها بأعجوبة، رأى أن المقام في ديار الاستبداد باتت مستحيلة، فقرر الهرب إلى مصر (١٩٠٠) حيث ستصلها يد الاستبداد وتفلح في قتله، بأن تدس له السم في فنجان قهوة في مقهى يلدز (١٩٠٢) لا فرق أن تكون هذه اليد هي يد السلطان عبد الحميد أو يد أبي الهدى الصيادي، ومما يؤكد هذه الجريمة الإسراع بدفنه على نفقة الخديوي عباس دون أن تفحص أمعاءه، خاصة أنه صرّح لصديقه في القاهرة (عبد القادر الدباغ) قبيل وفاته قائلا: "لقد سموني يا عبد القادر"
لعل الأذى الأكبر الذي تعرض له الكواكبي من قبل الاستبداد هو سرقة مؤلفاته وأوراقه، إذ يقال أن السلطان عبد الحميد أوعز إلى من يدّعي صداقة الكواكبي (عبد القادر القباني) صاحب جريدة "ثمرات الفنون" في بيروت بالرحيل إلى مصر وسرقة مؤلفات الكواكبي المخطوطة، التي كانت لظى على الاستبداد، يخافها كما كان يخاف الكواكبي، ويرى فيها تجسيدا لروحه، لذلك لا معنى لقتل الجسد وبقاء روحه الثائرة! لكن هذه الروح، بفضل الله تعالى، باقية بيننا رغم كل هذا القهر، وجدناها حية متألقة ثائرة في وجه الاستبداد في كتابيه ("أم القرى" و"طبائع الاستبداد") وفي بعض مقالاته التي استطاع الباحث جان دايه العثور عليها (جريدة "الشهباء" و"اعتدال" و"العرب") وهي مازالت حية بفضل عناية الباحثين في كل مكان في العالم بما بقي من إنتاجه، لأن عظمة أي إنتاج فكري لا تقاس بكميته، وإنما بفعاليته التي تتجاوز الشرط الزماني والمكاني.

("أم القرى" و"طبائع الاستبداد") وقد ذكرها لنا حفيده سعد زغلول الكواكبي في كتابه "عبد الرحمن الكواكبي: السيرة الذاتية" وهي ("العظمة لله"، "صحائف قريش"، "الأنساب"، "أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها" "أحسن ما كان في أسباب العمران"، "ماذا أصابنا وكيف السلامة"، "تجارة الرقيق وأحكامه في الإسلام") ويلاحظ من دلالة عناوينها أنها كانت استمرارا لما كان قد طرحه من أفكار في كتابيه السابقين، وإذا كانت هناك بعض الإضافات فلاشك أنها نتيجة رحلاته التي قام بها في السنتين الأخيرتين قبل استشهاده، ونتيجة نضج معاناته، ورغبته في مناقشة القضايا الإشكالية التي قد تشوّه الدين الإسلامي كقضية الرق.
وهكذا لم يكتف الاستبداد باغتيال الكواكبي وإنما سارع إلى اغتيال

الأذى الأكبر الذي تعرض له الكواكبي من قبل الاستبداد هو سرقة مؤلفاته وأوراقه، إذ يقال أن السلطان عبد الحميد أوعز إلى من يدّعي صداقة الكواكبي (عبد القادر القباني) صاحب جريدة "ثمرات الفنون" في بيروت بالرحيل إلى مصر وسرقة مؤلفات الكواكبي المخطوطة

وبذلك نجد أن الكلمة الصادقة التي هي نبض المعاناة اليومية للكواكبي، بقيت حية لا تموت، رغم ما تعرضت له من محاولة اغتيال وقهر على يد الاستبداد، فقد بدت لنا أقوى من المستبد قادرة على مواجهته والقضاء عليه في أي زمان وأي مكان.

رحلات الكواكبي:

ذاق الكواكبي صنوف المعاناة على يد الاستبداد العثماني وأعوانه، حتى لم يبق له مصدر رزق، وصار يستدين من أجل متطلبات حياته اليومية، لذلك حين عرض عليه السلطان منصب قضاء (راشيا) كي يبعده عن بلده (حلب) ويضعف تأثيره، تظاهر بقبوله، وسافر إلى الأستانة سرا، ليقوم بتحريات سرية عن أعمال السلطان وزبانيته، ويرى أنواع استبداده في عقر داره، لكن سرعان ما اكتشف أمره، ودعي للإقامة في قصر خاص بالضيافة، وقد التقى أثناء زيارته تلك بجمال الدين الأفغاني (١٨٩٥) الذي جاء إلى الأستانة (١٨٩٢) وبقي هناك (حتى وفاته أو بالأحرى قتله ١٨٩٧) في منزل للضيافة تحت الإقامة الجبرية، وقد أحس الكواكبي بعد لقائه بالمصير المشابه الذي ينتظره ، لذلك سارع بالعودة إلى حلب سرا.
لقد كان ظاهرا للعيان رغبة السلطان في التخلص منه، خاصة بعد أن أدرك أن المناصب في حلب لم ولن تغيره، فرأى الكواكبي حين عرض عليه السلطان منصب القضاء في راشيا وسيلة جديدة لإبعاده، خاصة أن هذا المنصب قد جاء بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها والتضييق على حريته في الأستانة، لذلك قرر الهرب إلى مصر سرا (١٩٠٠) بعد أن رهن البيت الذي كان مسجلا باسم زوجته، ليؤمن تكاليف سفره.
ولو تأملنا أسباب اختيار الكواكبي مصر موطنا له، للاحظنا أنها تنحصر في الحرية: جوهر الوجود الذي عاش من أجله الكواكبي ومات في سبيل تحقيقه، وهذا ما تخيل وجوده في مصر زمن الخديوي عباس، فقد كانت ملاذا للكتاب، الذين هاجر إليها أغلبهم من بلاد الشام، رغبة في الحرية، (التي يلمسها المرء خاصة في الجرائد المصرية التي كانت تتمتع بحرية نقد السلطان عبد الحميد) وإلى جانب الحرية في التعبير، كانت هناك حرية في استخدام اللغة العربية في الكتابة التي كانت شبه ممنوعة في شرقي السلطنة، لذلك أسس المهاجرون إليها صحفا ومجلات، واستطاعوا أن يسهموا في إغناء الحياة الأدبية والفكرية في مصر، وقد شكّلوا صوتا واضحا في الصحافة عرف فيها، واشتهر باسم "الشوام" عاش الكواكبي في القاهرة حوالي سنتين حيث ذاع صيته، وتابع نشر مقالاته في الصحف المصرية، بل نجده قد أصدر فيها "صحيفة العرب" التي لم تلبث أن توقفت، دون أن نعرف السبب، ربما قد يكون بسبب تقارب الخديوي عباس والسلطان عبد الحميد!! وقد كان أحد أهم شروط هذا التقارب، ألا يساند الخديوي المناوئين للسلطة العثمانية!!
كذلك استطاع أن ينشر فيها كتابيه "أم القرى" و"طبائع الاستبداد" اللذين كتبهما في حلب ولم يستطع نشرهما إلا بعد هربه منها، ويقول نديم الكواكبي (عبد المسيح الأنطاكي) إن الكواكبي ظل مختفيا في القاهرة حتى طبع كتاب "أم القرى" إذ أرسل منه نسختين إلى الخديوي في الإسكندرية، ونسخة إلى "الشيخ محمد عبده" والثالثة إلى "الشيخ علي يوسف" وقد سرّ الخديوي بالكتاب فطلب إلى الشيخين أن يسعيا للتعرف على صاحب الكتاب الذي لم يذكر اسمه عليه، ومنذ ذلك الوقت نشأت صداقة بين الخديوي والكواكبي التي يبدو أنها لم تعمّر طويلا، بسبب التقارب بين الخديوي والسلطان عبد الحميد، ورفض الكواكبي طلب الخديوي للسفر معه إلى الأستانة للتصالح مع السلطان.
أثناء إقامته في القاهرة، قام برحلتين زار فيهما بلدانا عربية وأخرى إسلامية، ليتفهم أحوال المسلمين وليدرس عن كثب مشروع رابطة أم القرى الذي تحدث عنه بشكل نظري في كتابه "أم القرى" فزار السودان والجزيرة العربية واليمن، والتقى القبائل العربية، ليعرف مدى مقدرتها على القتال، وليحرضها على الثورة ضد الأتراك، لكن اللافت للنظر اهتمامه بالشؤون الاقتصادية والجيولوجية لبلاد العرب، حيث ذكر ابنه (كاظم) الذي رافقه في رحلته الثانية، أنه كان يجمع نماذج من صخورها، ويجلبها معه إلى مصر لدراستها من قبل المتخصصين لمعرفة الثروات المعدنية التي تحتويها الجزيرة (وقد كان من بينها على ما يذكر ابنه زيت النفط الذي دلّه عليه الأعراب في الجزيرة).
إذاً لا تبدو الغاية من رحلاته دراسة أحوال الأمة العربية والإسلامية من الناحية السياسية والعسكرية فقط، بل دراسة أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية، كي يؤسس لدولة عصرية، ترتكز على إمكاناتها الاقتصادية الذاتية، لذلك سعى إلى معرفة ما تملكه من ثروات باطنية بالإضافة إلى ما تملكه من استعداد حربي، فهو يدرك أن حرية الدول لا تكون بجلاء الغريب عنها، وإنما بامتلاك القدرة الاقتصادية التي تستطيع حماية الحرية، وتأسيس بنيان الدولة على أسس متينة، تمنحها استقلالا حقيقيا.
لقد امتلك الكواكبي وعيا سابقا لعصره، فسعى إلى الحرية بأفضل معانيها، جنّد في سبيلها كل ما يملكه من مواهب أدبية وفكرية، وضحى من أجلها بكل ما يملك، حتى دفع حياته ثمنا لها.

مجلة دراسات عربية ايلول ١٩٨٤

ثنائية الاستبداد-الحرية في نظر الكواكبي

سمير حمدان

إن أحداً من مصلحي القرن التاسع عشر ومفكريه لم يبارز الاستبداد مثلما بارزه عبد الرحمن الكواكبي...كيف لا وهو الذي عانى،كما لم يعان أحد غيره،من الاستبداد الحميدي (نسبة الى السلطان عبد الحميد)!غير أن فلسفة عبد الرحمن في الاستبداد لم تصدر عن تجربته الذاتية بقدر ماصدرت عن نظر عقلاني هادئ يتمحور حول أقطاب ثلاثة:الفرد والمجتمع والدولة.إن هذه الأقطاب الثلاثة يرتبط بعضها بالبعض الآخر وفق علاقة جدلية لايمكن تفكيكها.من هنا سعي الكواكبي الى نهضة الدولة بواسطة التقيد بالقوانين والدساتير.والكواكبي لم يجد ما هو أكثر استبداداً من حاكم مطلق الصلاحية ولاحدود لتصرفه في شؤون الدولة والرعية.فمثل هذا الحاكم،وهو مستبد يحكم يده الطليقة من أي قيد أو قانون، "يتحكم في شوؤن الناس بارادته لاباراداتهم ويحكمهم بهواه لابشريعتهم ،ويعلم من نفسه أنه الغاضب المعتدي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته". على أي حال فانه ينبغي أن نتفق على أن (فلسفة الاستبداد)التي وضع عبد الرحمن مبادئها رمت،من وجه أول،الى هدم النظام السياسي العثماني الذي كان المعوق الأساس لنهضة العرب والمسلمين. وإذ طالب بالأخذ من المدنية الغربية بكل مايمكن أن ينهض بحياة العرب والمسلمين،السياسة والاجتماعية والاقتصادية، دعا في الوقت نفسه الى سن قوانين "مبنية على العدالة الاجتماعية". فالعدالة والحرية والمساواة والديمقراطية،إن هذه المفاهيم مجتمعة،اختفت من المجتمعات العربية - الاسلامية. وسبب ذلك هو (الاسلام العثماني)،كما يمكن أن نعبر،الذي أطلق يد الحاكم المستبد الذي لايردعه قانون ولايقيده دستور.وهذا (الاسلام)الذي شهد بفضل العثمانيين عدداً من (الاضافات والمزيدات)،يختلف عن الاسلام الأول،البعيد عن البدع والخرافات،والذي يعتبر الشورى(=الديمقراطية)والحرية والعدل والمساواة من مقوماته الأساسية التي لايجوز التخلي عنها.ومن هنا رؤية الكواكبي بأن نهضة العرب والمسلمين يمكن لها أن تتأسس من جديد على (المشرب السلفي المعتدل)أي على الاسلام الأول،اسلام الينابيع،الحضاري،المنفتح على منجزات الآخر وثقافته.إنه -بمعنى آخر-ذلك الاسلام الذي لم تمسه يد العثمانيين.وعلى الرغم من أن الكواكبي رأى الى هذا الاسلام على أنه طاقة يجب الاستفادة منها في فعل النهضة والتقدم غير أنه،وفي موازاة ذلك،دعا الى الأخذ بمنجزات الحضارة الغربية،وهي الحضارة الفتية التي يمكن للعرب والمسلمين ومن طريق الأخذ بالمفاهيم التي أطلقتها (حرية -إخاء-مساواة)،أن يحققوا أمرين:-نهضة مجتمعاتهم وتقدمها،-وتحررهم من نير العثمانيين. إن عبد الرحمن الكواكبي،وكبديل من نمط الحكومات السائد في البقعة العربية-الاسلامية،اقترح نمطاً من الحكم،دستوري النزعة،يخضع لسيطرة الأمة والقانون،وتالياً لاتخضع لارادة الأمة،إنما هي حكومات مستبدة،تقف ضد تطور الشعوب وتقدمها.فالمطلوب،وفق الأنظمة الدستورية،أن يراقب الشعب حكومته،ويحاسبها.وعلى هذا الأساس فان الحكومة "لايخرج عن وصف الاستبداد (أي لاتخرج عن كونها مستبدة)مالم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي تسامح فيه". ولئن كان ينهد الى الترويج لقيام الحكومات ذات المضمون الديمقراطي،وعلى نمط ما هو سائد في الغرب،لكنه لاينفك يعود الى خزائن المأثور الاسلامي ليستمد منها مفاهيم تصلح أساساً لبناء الدولة الحديثة.فهو دعا -وانطلاقاً من أن (إدارة الدين)اتحدت في المجتمع العربي الاسلامي ب(إدارة الملك)الى الأخذ بنوع من الارستقراطية في الحكم،أي الاعتماد على (الأشراف) في الامساك بزمام الأمور في الدولة الحديثة. فهو يرى أن "الاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديمقراطية،أي العمومية،والشورى الارستقراطية،أي شورى الأشراف". لكننا هنا يجب ألا نتسرع فنحمل كلام الكواكبي على غير محمله لجهة تفسير كلمة(الأشراف). فهو لايعني بهم اولئك الذين ينتمون الى طبقة اجتماعية معينة،وقد ورثوا هذا اللقب أباً عن جد،وإنما من نتوسم فيهم الشرف والكبرياء والحكمة والأنفة والشهامة وسعة المعرفة وأهليتهم للحكم. بكلمة أخرى فهو لايشير بهذا المصطلح الى أصحاب الحسب والنسب حيث "أن اجتماع نفوذ النسب وقوة الحسب يفعلان،ولاعجب،فعل المستبد العادل،أي عنقاء مغرب"،وإنما يشير-كما نوهنا قبل قليل-الى الذين يعتبرون أهلاً للحكم من جميع الوجوه.أما (الأصلاء) أو (الأشراف)الذين حملوا ألقابهم في ظروف معينة،فهم "جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل،لأن آدم داموا اخوانا متساوين الى أن ميزت (الصدفة)بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأ منها القوات العصبية". إذن فان الكواكبي لايدعنا في حيرة من أمرنا بالنسبة لتحديد هذا المصطلح،أي مصطلح الأشراف.فهم ينتمون الى سائر طبقات الشعب،وقد حازوا على (شرفهم)بالعلم والمعرفة والنبل والترفع عن الصغائر وأهلية الحكم.ويعمل الكواكبي على التوفيق بين مفاهيم الحداثة الأوروبية والمفاهيم المستمدة من الاسلام،وذلك إبان دعوته الى قيام سلطات تشريعية(مجالس نواب) تراقب الحكومات وتحاسبها.فالأمم المتحضرة،على رأي الكواكبي، "خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية (أي السلطة التنفيذية)". ويقارن بين هذه المجالس وبين ماأمر به القرآن الكريم حيث أن ذلك "منطبق تماماً على ماأمر به القرآن الكريم في آلاية:(ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)وفي كمالة هذه الآية وهي(وأولئك هم المفلحون) من التبجيل مايحمل نفوس الابرار على تحمل مضض القيام بهذه الوظيفة الشريفة في ذاتها،المقوتة طبعاً عند المستبد وأعوانه". إن الديمقراطية الارستقراطية،ديمقراطية (الأشراف)،لهي النظام السياسي الأمثل الذي ينهد إليه الكواكبي،إنه النظام الذي يجعل الدولة في خدمة الرعية،وليس عكس ذلك.ومن هنا فقد بات تحمل هذا العبء والاضطلاع به(وظيفة شريفة في ذاتها) حسب تعبير عبد الرحمن،وهي وظيفة (ممقوتة من المستبد وأعوانه)لالشيء إلا لأنها تحد من سلطتهم وتجعلهم خاضعين للقانون ولارادة الأمة.ومما لايرقي إليه الشك أن الميزة التي وسمت عبد الرحمن الكواكبي،من بين مفكري عصر النهضة كافة،أنه قدم وصفاً متماسكاً،وبل فريداً في أسلوبه لآفة الاستبداد.فبعد أن لاحظ بأن الأمم الحرة والمتمدنة أطلقت حرية القول والكتابة والتأليف والنشر،وحرية التعبير المخالف والمضاد للسلطة،وجد أن أنظمة الاستبداد التي ابتلى فيها المسلمون قيدت الأيدي بسلاسل من حديد وكمت الأفواه عن النطق بالحق. وهذا من طبيعة الاستبداد إذ لاشيء يقض مضجعه غير الحرية.وإذ شخص الكواكبي نحو البقعة العربية-الاسلامية التي تستظل بالاستبداد العثماني،وجد أن لامكان للحرية ولالكرامة الفرد والمجتمع.وقد لاحظ أن الاستبداد الذي مارسه العثمانيون بأبشع صوره وأساليبه،نهض على رافعتين :الرافعة الأولى تمثلت بالجهل الذي فشا بين الرعية وجعلها لاتدرك حقيقة مايجري حولها ويحاك ضدها،أما الرافعة الثانية فتمثلت في عسكرة الدولة لدرجة أنها باتت تفتقد الى أي طابع مدني،وهو الطابع الذي يسم الدولة الديمقراطية ويميزها.إذن "جهالة الأمة،والجنود المنظمة"هما الأساسان الرئيسان اللذان نهض عليهما الاستبداد في بلدان المشرق العربي والاسلامي،وهما يمثلان،بتعبير عبد الرحمن "القوتين الهائلتين المهولتين"اللتين أفسحتا المجال أمام المستبد لكي يذهب بعيداً في استبداده. لكن عبد الرحمن الكواكبي يضيف الى هاتين "القوتين المهولتين"قوات،أخرى اعتبرها من ركائز الاستبداد ومنها: "قوة الارهاب،وقوة المال،وقوة الألفة(التعود) على القسوة،وقوة رجال الدين، وقوة أهل الثروات،وقوة الأنصار من الأجانب". ولئن كان الكواكبي قد أسهب في وصف الاستبداد وفي تعريف الأسس التي ينهض عليها،غير أنه لم يقف عند حدود الوصف،وإنما تجاوز ذلك الى اقتراح مايمكن أن ينجي المسلمين والعرب من مخالبه.فقد أكد على ضرورة أن يستبدل نظام الحكم المطلق، حكم الفرد الذي لايقيده قانون ولاشريعة،الى نظام الدولة الحديثة القائمة على الدستور، وعلى الحرية السياسية.وطالما الحديث عن الاستبداد والمستبدين،فان عبد الرحمن الكواكبي،وقف ضداً لذلك(المصطلح الذي انتشر في أواخر القرن التاسع عشر والمؤيد لما أصبح معروفاً بـ(المستبد العادل).(فهو لم يرِ،مثلما رأى غيره،بأن ثمة استبداداً عادلاً وآخر غير عادل،وإنما ذهب الى أن الاستبداد واحد،مع بعض فروق في الشكل.)وفي هذا يقول: "قد يدخل على الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة في الادارة الحرة،ويسلمون له بها،فيقولون:الاستبداد يعلم الطاعة والانقياد،والحق أن هذا فيه عن خوف وجبانة لاعن إرادة واختيار!ويقولون :هو يربي النفوس على احترام الكبير وتوقيره،والحق أنه مع الكراهية والبغض،لاعن ميل وحب!ويقولون :الاستبداد يقلل الفسق والفجور،والحق فيه أنه عن فقر وعجز،لاعن عفة ودين!ويقولون:هو يقلل الجرائم،والحق أنه يخفيها فيقلل تعديدها لاعددها".

كان الكواكبي قد أسهب في وصف الاستبداد وفي تعريف الأسس التي ينهض عليها،غير أنه لم يقف عند حدود الوصف،وإنما تجاوز ذلك الى اقتراح مايمكن أن ينجي المسلمين والعرب من مخالبه. فقد أكد على ضرورة أن يستبدل نظام الحكم المطلق، حكم الفرد الذي لايقيده قانون ولاشريع

لماذا فشل الكواكبي؟

رضوان زيادة

التفكير في الاستبداد ملازمٌ للتأمل في نمط إدارة الدولة، أي أن البحث في أسباب طرق السيطرة والعسف في استخدام السلطة يقود بالضرورة إلى بلورة نظرية عن الاستبداد كشكل من أشكال السلطة التسلطية أو الشمولية. إذا عدنا إلى جذور التفكير في الاستبداد كنظرية قائمة على استثمار موارد الدولة لمصالح خاصة تحتكر السلطة وتعيد إنتاج الدولة ذاتها كأحد تعبيرات السلطة أو مفرزاتها، لوجدنا أن ماكيافيلي كان أول من اعتبر أن السلطة السياسية قوة يتم امتلاكها لأجل إقامة الدولة، بل إنه قد فكّر في الدولة كقوة تقوم على الضرورة والتدخل في الواقع لأجل التحكم فيه، إذ ليست الدولة وسيلة لتحقيق السعادة أو الفضيلة أو الحكمة كما رأى أفلاطون وأرسطو، بل هي قوة فعّالة غايتها التسلط والإكراه. بيد أننا إذا عدنا إلى جيرار ميري الذي يعد من أبرز دارسي ميكافيلي لوجدناه يؤكد أن أصالة ميكافيلي تكمن في كونه أعاد التفكير في السياسي إلى بنية العالم التاريخي، وهو بذلك هيّأ للحداثة السياسية الطريق لبناء الدولة التاريخية على أسس إنسانية.

لكن المبدأ الذي حكم السياسة وفقاً لأمير ميكافيلي كان قائماً على السيكيولوجيا الخاصة بالطبيعة البشرية، إذ على الأمير ألا يبني سلطته على الأخلاق ومبدأ الفضيلة، بل على فساد الطبيعة البشرية وتناقضاتها الداخلية، لذلك، ينصح ميكافيلي الأمير بضرورة إقامة سياسته على القوة والترهيب أكثر من الرأفة واللين، وعلى ضوء ذلك، يمكن اعتبار كتاب الكواكبي (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) كمرآة معاكسة ونقيضة لما كتبه ميكافيلي، ذلك أن الكواكبي كان همه لدى كتابة الكتاب تحذير الناس من أن "أصل الداء هو الاستبداد السياسي ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية".

لكن –الرحالة ك- وهو الرمز الذي أطلقه على نفسه عند نشره للكتاب أراد دراسة الآثار التي يخلفها الاستبداد على أحوال الناس ومعاشهم أكثر من رغبته في دراسة أصول نشوء الاستبداد أو حتى تطوير نظرية خاصة به لأن ذلك كما ذكرنا في البداية يتطلب تطوير رؤية خاصة سابقة عن الدولة وآليات تشكيلها، والكواكبي أراد قراءة تضاعيف الاستبداد على نمط الدولة العربية – الإسلامية الموجودة في زمانه.

إن الجو الفكري الخانق في بلاد الشام في تلك الفترة جعل الكواكبي وجميع رفاقه من أهل القلم الذين رغبوا في التعبير عن أفكارهم أكثر من رغبتهم في التملق للسلطان يهاجرون إلى مصر التي قدمت حرية أوسع للتعبير، وقد ظهرت القاهرة باعتبارها المركز الفكري للشرق العربي، ومرتعاً لولادة المثقفين الجدد، وذلك لأنها قامت جزئياً بوظيفة الملاذ والمأوى للشخصيات السياسية والفكرية المخالفة في الرأي في الامبراطورية العثمانية، فعبد الحميد الزهراوي هرب في عام ١٩٠٢ إلى مصر، أما طاهر الجزائري فقد هاجر إليها في عام ١٩٠٧ واستقر كل من رشيد رضا والكواكبي فيها.

فالكاتب كان مطارداً ومنفياً، وتجربته في إصدار الصحف كالشهباء والاعتدال دليلٌ آخر على ذلك، مما جعل كتابه يمتزج بالكثير من التجربة الشخصية وانفعالات الموقف المباشر وهو ما منعه- رغم رياديته- من العودة في التفكير في أصل الاستبداد التاريخي أو القانوني على ما وجدنا عند هوبز مثلاً.

الاستبداد بالنسبة للكواكبي هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعه، كما أن صفة للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين. وأشكال هذه الحكومة المستبدة تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق التي تولّى الحكم بالغلبة أو الوراثة، وتشمل أيضاً الحاكم الفرد المنتخب متى كان غير مسؤول، وتشمل حكومة الجمع ولو منتخباً، لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد.

بيد أن أشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية.

ولنا أن نقول كلّما قلّ وصفٌ من هذه الأوصاف خفّ الاستبداد.

يعيد الكواكبي الاستبداد إلى محض تفرد بالقرار وبالأمر والنهي، إنه نمطٌ من مماهاة ميكافيلي ولكن بطريق معاكس، فإذا كان الأخير يوجه نصائحه إلى الحاكم أو الأمير ليضمن له سيطرته المطلقة، فإن الكواكبي يحاول توصيف الاستبداد على أساس السيطرة المطلقة نفسها.

إن السلطة السياسية تستوجب قوة السلطة لتضمن احترام البشر للقوانين، فالسيادة هي الأساس الذي يجعل هذه السلطة مطلقة ودائمة داخل الدولة، أو هي الأساس الذي تقوم عليه هذه السلطة والذي بموجبه تسمى "سلطة السيادة"، فبالنسبة لجان بودان تُعتبر السيطرة المطلقة نمط من أنماط تضخم السيادة لدى السلطة، لكنها لا بد تنزع تدريجياً باتجاه إعادة دور المجتمع ضمن الدولة ذاتها، وعلى ذلك فتكون السلطة المطلقة مرحلة تاريخية لا تلبث الدولة ذاتها أن تراجع نفسها لإعادة تحديد وتعريف دورها. هنا الأمر مختلف كلياً لدى الكواكبي الذي ينظر إلى الاستبداد كداء لا بد من التخلص منه بأي ثمنٍ ومهما كان الثمن، دون أن يحاول النظر في العلاقة بين الإرث التاريخي للاستبداد وبين مأسسة هذا الاستبداد عبر تقعيد أطر بناء الدولة الحديثة.

إن أكبر تحد منع الكواكبي من تجاوز فكرة طبائع الاستبداد إلى آليات تدميرها في الثقافة العربية والإسلامية يعود إلى عدم قدرته على إنجاز القطيعة في المزاوجة بين فكرة القانون الوضعي والقانون الإلهي

وبرأيي فإن أكبر تحد منع الكواكبي من تجاوز فكرة طبائع الاستبداد إلى آليات تدميرها في الثقافة العربية والإسلامية يعود إلى عدم قدرته على إنجاز القطيعة في المزاوجة بين فكرة القانون الوضعي والقانون الإلهي.

إذ يعرف الكواكبي الاستبداد على أنه "يد الله القوية الخفيّة يصفع بها رقاب الآبقين من جنة عبوديته إلى جهنم عبودية المستبدين الذين يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهاراً" كما أن الاستبداد هو "نار غضب الله في الدنيا" ومرة أخرى يزيد في تعريفه بأنه "أعظم بلاء، يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين، ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة".

وعلى الرغم من أن الكواكبي يقر "أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، إذ هما أخوان؛ أبوهما التغلب وأمهما الرياسة، أو هما صنوان قويان، بينهما رابطة الحاجة إلى التعاون لتذليل الإنسان" إلا أنه ما استطاع فك الارتباط في أن تحالف الاستبدادين إنما يعود إلى غلبة السياسي نفسه على هيمنة كل حقول الحياة.

قد يقال أن الكثيرين ممن طوّروا فكرة القانون ذاتها بدءً من جون لوك ومونيسكيو وجان جاك روسو قد حاولوا تأسيسها في محاكاة لفكرة القانون الإلهي ذاتها، فمثلاً ربط جان بودانّ قوانين الدولة التي هي قوانين طبيعية في رأيه- بالقوانين الإلهية التي تشمل الفضائل والقيم والتي قد تعصم الحاكم من السقوط في شراك الطغيان السياسي، لكن كما هو واضح – فإن نظرية الإلهي داخل نظرية الدولة عند بودان تعد تدخلاً للأخلاقي.

إذاً على الرغم من التعرجات التاريخية التي مر بها التفكير في نظرية الاستبداد، فإن ذلك اعتمد وأسس على فكرتين محوريتين هما فكرتا الحق والقانون، وهما للأسف ما تغيبان عن تفكير الكواكبي في إزالة مخالب الاستبداد. دعونا ننتقل إلى الفصل الذي خصصه الكواكبي للحديث عن التخلص من الاستبداد، والذي ربما فيه نجد بعض أنوية التفكير في فكرتي الحق والقانون لديه.

يقرر الكواكبي أن "شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين" ثم ينتقل إلى ما يعتبر جوهر فكرة بناء الدولة وهي العلاقة بين الحاكم والمحكومين، إذ يعرف الاستبداد على أنه هو "الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم" ثم يعدد المباحث المتعلقة بذلك، ويبدأ بتعدادها وشرحها على شكل أسئلة استفهامية واستنكارية دون الوصول إلى نقطة أبعد من ذلك.

والمباحث التي يعددها تتمحور حول الأمة أو الشعب، وما هي الروابط التي تجمع بين مكونات هذه الأمة؟، هل هي روابط دين أو جنس أو لغة ووطن وحقوق مشتركة وجامعة سياسية اختيارية. ثم يعرف الحكومة متسائلاً هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع، أم هي وكالة تقام بإرادة الأمة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العمومية، ثم ما هي هذه الحقوق العمومية؟ وهل هي حقوق آحاد الملوك، أم –بالعكس- حقوق جمع الأمم؟، وما معنى التساوي في الحقوق ومنها الحقوق الشخصية. وما هي نوعية الحكومة ووظائفها؟ ثم يذكر عدداً من هذه الوظائف كحفظ الأمن العام وحفظ السلطة في القانون، وتأمين العدالة القضائية، وحفظ الدين والآداب، وتعيين الأعمال بقوانين. ثم يفرد مبحثاً للحديث عن تعريف القانون وقوته، وضرورة التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم.

قد يبدو ذلك مناقضاً في ظاهره لما أوردناه آنفاً من غياب فكرتي الحق والقانون عن رؤية الكواكبي في الاستبداد، لكن، الأمر هو معاكس لذلك تماماً، إذ أن فكرتي الحق والقانون لدى الكواكبي بعديتان وليستا قبليتان حسب تعبير كانط.

ذلك أنهما تاليتان لتأسيس الحكومة وليستا سابقتين عليهما. وهو جوهر التفكير الحقوقي والقانوني، فالحق جزءٌ من الطبيعة البشرية وجملة حقوقه في الحياة والمسكن والمشرب والمأكل هي جزءٌ من ذاته الإنسانية لا يحق لأحد حرمانه منها ولا حتى الإشعار بالتكرم لدى منحها.إنها جزء من وجود الإنسان.وعندها يكون تأسيس فكرة الحق بوصفها إعادة تعريف وتوسيع للحقوق حتى يتم ضمان كفالتها للجميع تأسيساً على حق المساواة ذاته، وهنا تتأسس فكرة القانون كصنو لفكرة الحق وكنظير لها.

بيد أن الكواكبي فكّر في الحكومة بوصفها إطاراً لا بد منه، لكن عليها أن تعي أن لمواطنيها حقوقاً عليهم الالتزام بها وتطبيقها، وهو ما يفقد فكرة الحق قوتها وألقها ويجعلها أشبه بشكل من أشكال السياسة الطبيعية التي تختلف في صلاحها أو عدم صلاحها، وهي مسألة تخضع لوجهات النظر.

وبذلك تكفّ عندها فكرة الحق ذاتها عن الإشعاع بوصفها الأصل وتصبح مجرد رأي للنقاش وهي ما استطاع الفكر الدستوري الغربي التخلص منه عبر بلورة مفهوم التعاقد الاجتماعي وإعادة بناء أسس الشرعية الدستورية.

بيد أنه وبالرغم من ذلك كله، لم لم تستكمل محاولة تأسيس الكوَاكبي على محدوديتها لدى فكر النهضة فيما بعد، أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال تطول ،ذلك أن الإجابة هنا تتعدى الفكري لتدخل في السياسي – الاجتماعي وهو ما لابد من مراجعته حتى نستطيع اليوم نزع قلاع الاستبداد المتكاثرة في بلادنا العربية.

جريدة الغد الأردنية
١٥ / ٤ / ٢٠٠٦

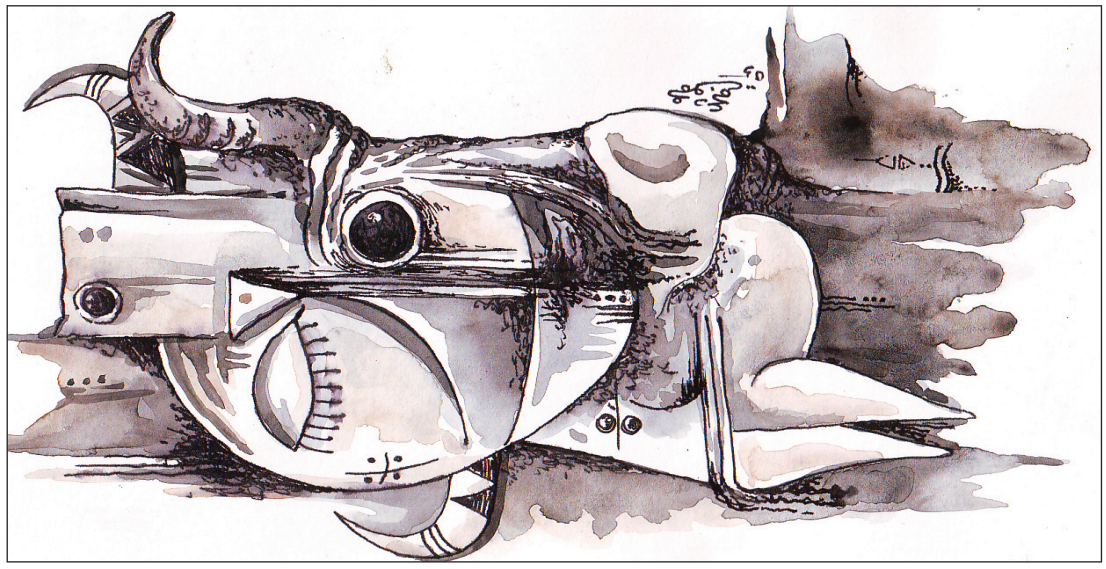

ما هو أكيد أن المفكر الكبير عبد الرحمن الكواكبي، يوم رحل عن هذه الدنيا مطلع القرن الماضي، ترك وراءه كتابات ومخطوطات لا يمكن الاستهانة بها، بقيت طي الكتمان، ولم تنشر إلى اليوم. ورغم ان كتاباً وصحافيين عدة، كتبوا يومها عن مخطوطات له، في جعبتهم، ينوون نشرها إلا انهم لم يفعلوا، ربما إهمالاً، وعلى الأرجح خوفا من السلطان الجائر. هذا يعني ان الكثير مما كتبه الكواكبي ما يزال مجهولاً، ولكن المثير في الأمر ان الجزء اليسير الذي نشر، مما تركه الكواكبي مخطوطاً، لم يكن في أي دولة عربية او أوروبية وإنما في صحيفة أرجنتينية تسمى «السلام» كان صاحبها يقيم في الأوروغواي. وقد نشرت هذه الجريدة للكواكبي، بعد وفاته بعشر سنوات، مقالات أو دراسات، قريبة جداً في روحها من كتابه «طبائع الاستبداد»، نلقي الضوء عليها هنا، وعلى ما جاء فيها، متسائلين، عن سر اختفاء مخطوطات الكواكبي.

مخطوطات عبد الرحمن الكواكبي «المخيفة» ظهرت في الأرجنتين!

«الرحالة ك» ظلمه الاغتراب حياً وميتا

جان دايه

بُعيد وفاة عبد الرحمن الكواكبي في القاهرة بتاريخ ١٣ يونيو ١ حزيران ١٩٠٢، رثاه معظم الصحافيين والادباء المصريين والشوام، ولم ينسَ بعضهم ان ينوه بوجود آثار للفقيد الشهيد. سمم له الخديوي عباس الثاني بايعاز من السلطان عبد الحميد. ووعدوا بنشرها في دورياتهم. وقد كتب محرر مجلة «نور الاسلام» في ٢١ يونيو ١٩٠٢: «سننشر فصولا من انوار عرفانه بالتتابع في مجلتنا». واضاف في مكان آخر من الرثاء: «سنزين نطاق المجلة في الاعداد التالية بما وعدنا بنشره». وختم محرر «الاهرام» رثاءه المنشور في ١٣ يونيو ١ حزيران ١٩٠٢ بقوله: «اذا كان الفقيد قد مضى، فإن له آثارا مخلدة تنفع الشرق والشرقيين، وكتابات لا تزال تنشر».

وينقل الحفيد سعد زغلول الكواكبي في كتابه المتمحور على سيرة جده رثاء الصحافي اللبناني المتمصر ابراهيم سليم النجار وقد ورد فيه: «ذهب الرجل الذي يضع تاريخ ثورات العالم في كتاب يكون للامم المستعبدة مثل الباب تدخل منه الى بيت الحرية المنير». وبعد حوالى العام من رحيله، وعد بشير يوسف (الانطاكي) في العدد الاول من جريدته «القاهرة»، الصادر في ١١ ابريل ١ نيسان ١٩٠٣ انه سينشر «بعض مؤلفات الكواكبي غير المنشورة» في اعداد لاحقة من جريدته. وفي الجزء الثاني من مذكراته.. يقول محمد كرد علي: «اما كتاب «العظمة لله» فهو كتاب سياسي كسائر ما خطته يمينه. وقد قرأ لي مقدمته». وينوه احد ابناء الكواكبي (اسعد) في رسالة الى اخيه رشيد بمخطوطة «الانساب» التي اخذها محمد رشيد رضا.

ويشير الكواكبي نفسه في مستهل كتابه «ام القرى» الى مخطوطة «صحائف قريش». ويؤكد ابنه اسعد ان المخطوطة كانت معدة للطبع، ولكن رحلات والده ثم موته، تسببت في فقدانها.

وفي كتابه «دليل مصر والسودان» يقول صديق الكواكبي الصحافي والاديب الحلبي عبد المسيح الانطاكي «لدينا نحن بعض ما ترك – الكواكبي – من نفثات اقلامه مما لم يطبع بعد. وربما نشرنا قسما منها في دليل السنة القادمة ان شاء الله». وباستثناء بعض المقالات التي نشرها رِضا في مجلته «المنار»، وبعض الاحاديث التي تذكرها عبد المسيح الانطاكي ونشرها في جريدة اخيه «القاهرة» وذيّلها بتوقيع «نديم الكواكبي»، فإن شيئا من تلك الكتابات لم ينشر، لا في الدوريات، ولا في كتب مستقلة. وربما يعود ذلك الى ان الزملاء الذين وعدوا بنشر نتاج الكواكبي الموجود في ارشيفهم، كانوا يقيمون في مصر، ويصدرون دورياتهم في القاهرة، حين كان خديوي مصر وقتذاك خصما للكواكبي، او بالاحرى اصبح كذلك بعد ان زار اسطنبول وتصالح مع سيد قصر يلدز. اما الجزء الاخر المفقود من مخطوطات الكواكبي، فمن المفترض انه يقيم سعيدا في محفوظات تركيا لمرحلة الحقبة العثمانية. ولكن، اذا كان متعذرا نشر بعض نتاج الكواكبي في مصر، وخلال حكم الخديوي اسماعيل الثاني، فان النشر في دولة اخرى، او بعد سنوات من استشهاد الكواكبي، يمكن ان يكون قد حصل. وانطلاقا من هذه الفرضية، فتّشت عدة مجلدات لدوريات عربية قديمة، صدرت في القارة الاميركية، ومنها جريدة «السلام» الارجنتينية. وعثرت في الاخيرة على سلسلة مقالات مذيّلة بتوقيع مستعار: «الرحالة ك». والجدير ان هذا التوقيع توّج به الكواكبي كتابه «طبائع الاستبداد». افتتح الرحالة دراسته المهداة «الى الامة العربية الكريمة» بمقدمة طرح فيها عدة تساؤلات على غرار ما فعله في الصفحات الاولى والاخيرة من كتابه «طبائع الاستبداد».

ولنقرأ نماذج من تلك التساؤلات:

١- هل يجب ان تخضع الامة لهذه القوة – أي الحكومة – خضوعا مطلقا لا حدّ له او ان هذه الامة تحدد لنفسها دائرة نظامية تخضع فيها لهذه القوى خضوعا يكون من ورائه حفظ توازنها المدني وعدم خروج اعضائها من هذه الدائرة النظامية؟

٢- هل من واجب هذه القوة ان لا تتحرك الا فيما يعود على الامة بالنفع العام او انها حرة في التحرك الى ما تهوى ولو ناقض ما تهواه مصالح الامة ومرافقها؟

٣- وهل ينزع من جسم الامة الجاهلة قوة حاكمة صالحة؟

٤- وكيف تكون حال الحكومة من الاستبداد والفوضى، اذا كانت الامة جاهلة كما تكون حال الحكومة التي تكون امتها عالمة عارفة بحقوقها من النظام والرقي والشعور بقوة هذه الامة وبأسها؟

٥- وكيف تسوي الامة ادارتها الصحيحة؟ وما هي الوسائل التي تدوم معها وفيها؟ أيجب ان تخضع لحكومة يحركها فردا؟ أم يجب ان يكون الامر شورى؟ وكيف يكون الامر شورى بين افراد الامة؟

٦- وما احدث النظامات التي وصل اليها علم الاجتماع لتكوين الافراد والجماعات والحكومات؟ وما يجب ان يكون عليه الحاكم حين وقوع امته في انياب التغلب الاجنبي؟ وما واجبات الامة ازاء ذلك وحين خروج حاكمها في شرعته عن النهج الاستقلالي؟

٧- وعلى ذكر الامة، فقد تساءل الكاتب: «ما الامة؟ هل هي قطيع من الغنم لراع له حق رعايتها المطلقة، فيحركها بما يريد الى ما يريد؟ وهل هي مجموعة عبيد لحاكم له حق التصرف في اموالها وارواحها بذلا وحرمانا، سجنا واطلاقا او هي جمع نام له روابط اجتماعية ولغة ودين ووطن؟».

ان التساؤلات الآنفة وغيرها الكثير مما لا مجال لايراده هنا، يجد قارىء الكواكبي، خصوصا في كتابه «طبائع الاستبداد»، شبيها لها، ليس فقط بالمضمون، وانما بالشكل ايضا. وعلى سبيل المثال، يقول الكواكبي في فصل «الاستبداد والتخلص منه»: «ما الامة؟ هل هي ركام مخلوقات نامية او جمعية عبيد لمالك متغلب وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كرها او هي جمع بينهم روابط دين او جنس او لغة ووطن؟».

ينقل الحفيد سعد زغلول الكواكبي في كتابه المتمحور على سيرة جده رثاء الصحافي اللبناني المتمصر ابراهيم سليم النجار وقد ورد فيه: «ذهب الرجل الذي يضع تاريخ ثورات العالم في كتاب يكون للامم المستعبدة مثل الباب تدخل منه الى بيت الحرية المنير

لم يكتف الرحالة في طرح التساؤلات والاجابة عن ثلاثة منها وباختصار، كما فعل في «طبائع الاستبداد»، بل هو اجاب بالتفصيل عن كل سؤال كما وعد في ختام المقدمة حيث قال: «اما كون الامة جمعا ناميا له حقوق مشتركة وروابط اجتماعية ولغة دين ووطن، فسنفصله في المقال الآتي ان شاء الله. أما المصطلحات فاكتفي بثلاثة منها: الامة اي «الشعب»، «مبحث»، «حبا في التمجد لا ولوعا بالمجد الصحيح».

وكلمة «مبحث» تتصدر كل مقطع من فصل «الاستبداد والتخلص منه». وعبارة «ما الامة اي الشعب» تتوج المبحث الاول. واستعمل مصطلحي «المجد» و«التمجد»، عشرات المرات في فصل «الاستبداد والمجد».

ولكن، من يكون ناشر هذه الكتابات الكواكبية بعد اكثر من عشر سنين من رحيل الكواكبي؟ ولماذا اقام في الاوروغواي، ورغب في ان ينشر تلك المقالات في «السلام» الارجنتينية؟ وما سرّ تذييله او تتويجه لها بالتوقيع المستعار «الرحالة ك» وليس بالاسم الصريح عبد الرحمن الكواكبي؟

كانت «السلام» من ابرز الدوريات العربية التي اصدرها الشوام في دنيا الاغتراب. اضف الى ذلك ان سياستها تتماهى، بخطوطها العريضة، مع سياسة الكواكبي الاصلاحية خصوصا في الحقل السياسي– الاجتماعي. لذلك أثر من كانت المقالات بجعبته، ويرجّح انه «نديم الكواكبي» او الصحافي والكاتب الحلبي عبد المسيح الانطاكي، ان ينشرها في هذا المنبر الاعلامي المرموق والتقدمي. ونزيل الاوروغواي اصرّ على نشرها بتوقيع الكواكبي المستعار «الرحالة ك» ليصيب عصفورين بحجر واحد: مارس الامانة في نشر النص كما هو وباسم صاحبه المستعار... ودخل بوابة «السلام» التي فتحها «الرحالة ك» عبر دراساته العميقة في علمَيّ السياسة والاجتماع، فتابع نشر نتاجه هو في «السلام» مستعيراً اسم الكواكبي المستعار بلا استئذان.

ترجمة هناء قاسم

اللبرالية في التاريخ العربي.. الكواكبي رائداً

كامل عباس

تمر البلدان العربية الآن في فترة زمنية عصيبة تتشابه مع الفترة التي مرت بها أواخر الاستعمار العثماني في أوجه عديدة وأهمها
– الجهل والتخلف والاحتراب الطائفي المتفشي في النفوس نتيجة استبداد الحكام
– الهوة الكبيرة التي تفصل بين الحكام والمحكومين وبشكل خاص في أحوال المعيشة ، حيث الغنى والبذخ والترف الفاحش الذي يتمتع به الحكام وأولادهم وأصدقاؤهم وبطانتهم ومواليهم مقابل فقر مدقع لعامة الشعب ، وان كان من خلاف بين المرحلتين فهو يكمن بأن حكام ذلك الزمن كانوا غرباء عن الأمة استعمروها باسم الدين ، أما حكام الزمن الحالي فهم مستعمرون محليون باسم النضال ضد الخارج الطامح بثوراتنا ،
أنتجت الفترة الأولى ما سمي بعصر النهضة . يهمنا في هذا البحث من روادها الحلبي السوري عبد الرحمن الكواكبي الذي يطيب لي ان أسميه عميد اللبرالية العربية ، ولم لا ؟ فاللبرالية هي فلسفة الحرية ، والكواكبي هو القائل ((ما أليق بالأسير في الأرض أن يتحول عنها الى حيث يملك حريته ، فان الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط)) (١)
والحرية نفيض الاستبداد ، وهو الذي قضى حياته وهو يفكر ((ما تأثير الاستبداد على الدين ، على العلم ، على المجد ، على المال ، على الترقي ، على التربية ، على العمران . ومن هم أعوان الاستبداد ؟ وكيف يكون التخلص من الاستبداد ؟ وبماذا ينبغي استبدال الاستبداد ؟)) (٢)
ولقد كان الكواكبي كسائر الفلاسفة الغربيين الأوائل ، يريد تلك الحرية لتخدم المجتمع ككل ، وليس فئة قليلة منه ، فاذا كان العقد الاجتماعي للبراليين الغربيين الأوائل يراد منه (أن تتلاءم الحرية مع السلطة وان يتوفر قدر من المساواة ، واذا لم تتوفر المساواة تتناقض السلطة مع الحرية لأن هدفها يغدو حماية وتأمين اللامساواة بين البشر) (٣) واذا بذل جون ستوارت ميل وتوكفيل ((جهدا خاصا لإقناع مثقفي القرن التاسع عشر ، بان سيادة الشعب شرط غير كاف وانه دون اقامة نظام من الحماية القانونية لحريات الأفراد والأقليات قد تتحول سيادة الشعب الى قمع أفراد الشعب وقمع حرياتهم) (٤) فان الكواكبي بذل جهدا مشابها لاقناع مثقفي البلدان العربية الاسلامية الواقعة تحت النير العثماني بان معنى الحرية ((أن يكون الانسان مختارا في قوله وفعله ولا يعترضه مانع ظالم ، ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ، ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء ، وعدم الرهبة في المطالبة ، وبذل التضحية ، ومنها حرية التعليم ، وحرية الخطابة والمطبوعات ، وحرية المباحث العلمية ، ومنها العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم او غاصب أو غدار متعال) (٥)
وحرية الكواكبي من أجل إنصاف الفقراء فهو يرى ((ان شريعتنا مبنية على أن في أموال الأغنياء حقا معلوما للبائس والمحروم ، فيؤخذ من الأغنياء ، ويوزع على الفقراء ، وهذه الحكومات الاسلامية قد قلبت الموضوع ، فصارت تجبي الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء ، وتحابي بها المسرفين والسفهاء)) (٦) وهو في كل ذلك لايريد للفقير ((أن يطلب معاونة الغني ، انما يرجوه ألا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ولا يأمل منه الإنصاف ، انما يسأله ألا يميته في ميدان مزاحمة الحياة)) (٧)
وصف الكواكبي الاستبداد بعمق نظري يوازي ان لم نقل يزيد عن فلسفة العباقرة الغربيين أمثال مونتسكيو وروسو وغيرهم ، وما تزال أوصافه تشخص بدقة جوانب كثيرة مما نعاني منه نحن أبناء الشرق
((اني أرى قصر المستبد في كل زمان ومكان هو الخوف عينه ،فالملك الجبار هو المعبود ، وأعوانه هم الكهنة ، ومكتبته هي المذبح المقدس ، والأقلام هي السكاكين ، وعبارات التعظيم هي الصلوات ، والناس هم الأسرى الذين يقدمون قرابين الخوف)) (٨)
((الاستبداد لو كان رجلا وأراد ان يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر وأبي الظلم وأمي الإساءة ، وأخي الغدر ، واختي المسكنة ، وعمي الضر ، وخالي الذل ، وابني الفقر ، وبنتي البطالة ، وعشيرتي الجهالة ، ووطني الخراب ، أما ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال المال)) (٩)
ومثل الفلاسفة الكبار في التاريخ الذين وصفوا استبداد الرعاع بأنه أخطر أنواع الاستبداد ، حذر هو الأخر من دور لعامة الشعب في الاستبداد ، ((العوام هم قوة المستبد ، وقوته بهم عليهم يصول ويطول ، يأسرهم فيتهللون لشوكته ، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم ، ويهينهم فيثنون على رفعته .....)) (١٠)
تجلت عبقرية الكواكبي في تحذيره من دور العسكر الأساسي في الاستبداد الشرقي .
((في خدمة الاستبداد وسيلتينا عظيمتينا ، هما جهالة الأمة والجنود المنظمة ، وهما اكبر مصائب الأمم وأهم مصائب الإنسانية ، وقد تخلصت الأمم المتمدنة نوعا ما من الجهالة ، ولكن بُليت بشدة الجبرية العمومية ، الجندية تفسد أخلاق الأمة ، حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال ، وتميت النشاط وفكرة الاستقلال و وتكلف الأمة الإنفاق الذي لا يطاق ، وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشئوم ، استبداد الحكومات القائدة لتلك القوة من جهة واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى)) (١١)
وإذا كانت اللبرالية فلسفة الحرية وآلية نشرها في المجتمع عبر الديمقراطية المناسبة له في زمان ومكان تطوره ومستنبتة داخل تربته ، فان الكواكبي شغلته الآلية بنفس المقدار التي شغلته الفلسفة ((وحيث أني قد تمخض عندي أن أصل هذا الدواء هو الاستبداد السياسي وداؤه دفعه بالشورى الدستورية ، وقد استقر فكري على ذلك بعد بحث ثلاثين عاما)) (١٢)
لم يكن الكواكبي منظرا فقط ينتج فكرا على شاكلة الفيلسوف العربي الكبير ابن خلدون ويتملق الحكام معللا ذلك بكونه يريد لفكره أن يصل الى المجتمع ليصبح قوة فيه . بل كان الكواكبي منسجما في الفكر والممارسة ، وكان مناضلا صادقا مع نفسه ، فضّل حياة الحرمان والتشرد والملاحقة على مداهنة الحكام ، ودان بشدة دور المثقفين الانتهازيين الذين يتملقون الحكام
((ان المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة للتغرير بالأمة باسم خدمة الدين او حب الوطن او توسيع المملكة او تحصيل منافع عامة ، او مسؤولية الدولة او الدفاع عن الاستقلال)) (١٣) ودفع بالنهاية ثمنا باهظا لصلابته وعدم قدرة العثمانيين في ثنيه عن الترويج لأفكاره لا بالترغيب ولا بالترهيب ، حتى تمكنوا منه عبر عيونهم وجواسيسهم وقضوا عليه بالسم في المكان الذي أبعدوه اليه بعيدا جدا عن موطنه الأصلي حلب
سيخرج علي كثيرا من علماني بلادي- وما أكثرهم هذه الأيام – منتقدين ومنددين بشدة ، كوني أروج لفكر رجعي مرجعيته الكواكبي الذي كان يريد أن يعيد البلدان العربية قرونا الى الوراء ويقيم دولة إسلامية مشابهة لدولة الرسول (ص) بعد ان فات زمانها ومكانها ، وستكون حجتهم المؤتمر الذي تخيله من اجل نهضة عربية اسلامية ودعا لعقده في مكة المكرمة بتاريخ ١٣١٦هج – ١٨٩٦ م ، واستفاض في تفاصيل تلك الدولة الاسلامية في كتابه المعروف (ام القرى)
يصح اعتراض هؤلاء علي اذا قبلوا بوصفهم علمانيين دكتاتوريين ، اما ان يوصفوا أنفسهم بأنهم دعاة اللبرالية فذلك لايصح مطلقا ، هؤلاء يحلمون بمجتمع عربي لا وجود له الا في أذهانهم ، والكواكبي اكثر تقدمية منهم بكثير ، وأي شخص او تيار او فئة لايحكم عليها الواقع بما تقول عن نفسها ، بل بفعلها على ارض الواقع ، نعم ان منهج الكواكبي ولبراليته هي على أرضية اسلامية ، ولكنه يريد ان تكون قاعدتها – كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته – وهل هناك أبلغ من هذا القول ، وهل هناك امة في العالم تطمح الى أكثر من هذا؟ والكواكبي في لبراليته منفتح على الآخرين لدرجة انه ((يفضل السلطان العادل الكافر على السلطان المسلم الجائر)) (١٤)
على العكس تماما : ان روح الكواكبي الاسلامية هي المطلوبة هذه الأيام . لأن الاسلام يكاد يكون القوة الثانية في التأثير على هذا الكوكب ، فهل نلغي هؤلاء لأنهم يريدون ان يحافظوا على تراثهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ويريدون ان ينظموا حياتهم الاجتماعية والسياسية بالتوافق مع تشريعات دينهم الاسلامي ؟!، أم نعمل معهم ضمن دولة مدنية كما يريد الكواكبي ، نحن بحاجة الى فهم الكواكبي للإسلام أكثر من أي وقت مضى ((ان جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة ، دين النشاط والنظام ، دين القرآن الصريح البيان ، الى صفة أنا حعلناه دين الخيال والخبال ، دين الخلل والتشوش ، دين البدع والتشديد ، دين الإجهاد ، وقد دب فينا هذا المرض منذ ألف عام)) (١٥)
استمعوا الى هذا الاسلامي الذي يقول عن الشرق كلاما فيه من الجرأة ما يفوق مئات المرات كلام العلمانيين الرافضين لحضارة الغرب والداعين للنضال ضد تلك الحضارة ((وهكذا بين الشرقيين والغربيين فروق كبيرة ، قد يفضل في الافراديات الشرقي على الغربي وفي الاجتماعيات الغربي على الشرقي مطلقا ، مثال ذلك . الغربيون يستحلفون أميرهم على الصداقة في خدمته لهم والتزام القانون . والسلطان الشرقي يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة،
الغربيون يمنون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلات ، والأمراء الشرقيون يتكرمون على من شاءوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات ، ان الغربي يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه ، والشرقي يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكا لأميره ، الغربي له على اميره حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقي عليه لأميره حقوق وليس له حقوق ، الشرقي سريع التصديق والغربي لا ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس ، الشرقي أكثر ما يغار على الفروج كان شرفه كله مستودع هناك ، والغربي أكثر ما يغار على حريته واستقلاله ، الشرقي حريص على الدين والرياء فيه ، والغربي حريص على القوة والعز والمزيد منهما ، والخلاصة : إن الشرقي ابن الماضي والخيال ، والغربي ابن المستقبل والمجد)) (١٦)
ان رواد النهضة الأولى عملوا بجد وتفان متكاتفين متضامنين ضد استبداد العثمانيين (لدرجة وصلت ببعضهم الى الموت سما كما جرى للكواكبي او للوصول الى المشانق كما جرى مع شهداء السادس من أيار) من اجل نشر الأفكار اللبرالية في البلدان العربية الاسلامية ، لقناعتهم ان الجهل والتخلف أكبر خادم للاستبداد ، ولم يكن همهم الاختلاف فيما بينهم حول المجتمع العربي القادم هل هو اسلامي او علماني؟، كان همهم التقاطعات المشتركة ففيما بينهم والذي تؤدي الى الحرية و تخدم تطوير وتحديث مجتمعاتهم، ولم يحدثنا التاريخ عن معارك جانبية بين العلمانيين
أمثال فارس الشدياق وفرح انطون وشبلي شميل وبطرس البستاني وعبد الرحمن الشهبندر
وبين الاسلاميين امثال محمد عبده وعلي عبد الرازق وعبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الأفغاني ورفاعة رافع الطهطاوي .
ومع أن واقعنا العربي يتطلب جهودا لنهضة جديدة لاتقل عن جهود النهضة الأولى ، نجد المعارك الجانبية على أشدها في ساحتنا العربية بين اليساريين واللبراليين ، لدرجة تثير الاشمئزاز.

ان رواد النهضة الأولى عملوا بجد وتفان متكاتفين متضامنين ضد استبداد العثمانيين (لدرجة وصلت ببعضهم الى الموت سما كما جرى للكواكبي او للوصول الى المشانق كما جرى مع شهداء السادس من أيار) من اجل نشر الأفكار اللبرالية في البلدان العربية الاسلامية ، لقناعتهم ان الجهل والتخلف أكبر خادم للاستبداد

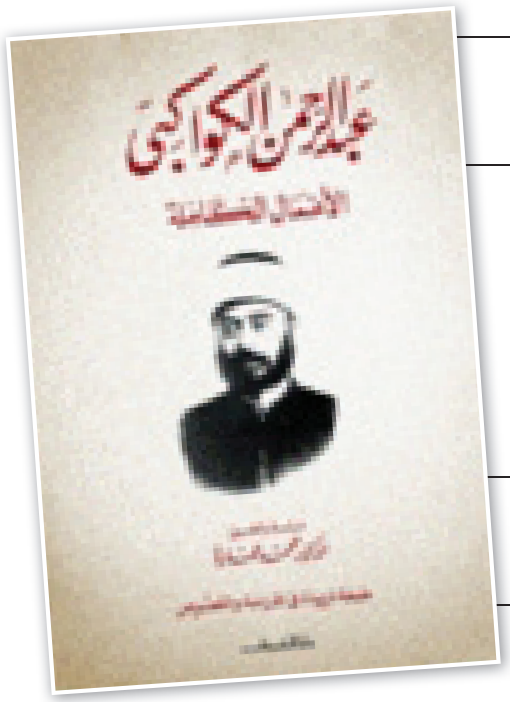

هكذا تكلّم الكواكبي رائد النهضة العربية

اغتالته السلطة في الرابع عشر من حزيران سنة ١٩٠٢

وماتزال أفكاره حيّة لاتموت

في القرن الماضي، وفي ظروف القهر والجهل والجوع، وتحت سياط الدولة العثمانية المريضة، ومع غياب وسائل الاتّصال السريع ، أبدع الكواكبي صحيفتيه (الشهباء) و (اعتدال) بتمويل ذاتيّ وجهد فرديّ ، حيث كان الكاتب والطابع والموزّع . كما ألّف (أم القرى) بشكل روائي جعل كثيراً من الباحثين يظنوّن أنّه سجلّ لوقائع حقيقية . ووضع (طبائع الاستبداد) مبيّناً علاقاته المختلفة .
فكم واحداً منّا . نحن العرب المعاصرين . يستطيع أن يحرّك الفكر من حوله بمقدار ما حرّكه الكواكبي ؟
وهل نحن عاجزون ، في ظل الاستقلال والتقنيّة الحديثة، عن إنجاز ما فعله أجدادنا ؟ ولماذا ؟
أتراها الهجمة المستعرة على الاستهلاك ، أم هو الاستبداد الذي يطبق على أفكارنا بحيث نعجز عمّا استطاعه مفكّرو القرن الماضي ، بالرغم من ظروف القهر والتخلّف؟

والكواكبي واحد من أجدادنا الأفذاذ. رواد النهضة الذين حاولوا النهوض بالواقع إيماناً منهم بمسؤوليّة العلماء في توعية الناس ليقدروا على المطالبة بحقوقهم بعد أن يدركوا أنّهم بشر أحرار في صنع مصائرهم . وبالرغم من أنه واحد من القلائل الذين تُذكر أسماؤهم في الكتب المدرسيّة ، نكاد لا نعثر إلاّ على عدد ضئيل ممن
يعرفون إسهاماته في محاولة النهضة العربية تحت لواء علم عربي واحد ، لا يتعارض وجوده مع رابطة تضمّ
الشعوب الإسلاميّة ،ولا يتنافى ودخول العرب في تحالفات مختلفة مع الآخرين . وكثير منهم لا يعرفون صيحاته
التي تندد بالاستبداد ، وتدعو إلى تحرير العقول من الجمود، وتطالب بضرورة الاجتهاد في الإسلام الذي وُجد من أجل سعادة الإنسان .
ولد الكواكبي عام / ١٨٥٥ / وتنقّل بين حلب وانطاكية لمتابعة دروسه ، وكان يتقن الفارسية والتركية إلى جانب لغته
الأم . أمتاز بنشأته ذات الثقافة الدينية ، وتربيته العلمية ، حيث تلقى علوم الشريعة والفلسفة والاقتصاد والسياسة.
عمل في صحيفة (فرات) ثم ضاق ذرعاً بها ، فأنشأ أول صحيفة مستقلة في حلب (الشهباء) وهو في
الثانية والعشرين من عمره ، إلاّ أن السلطات أغلقتها لأنها هاجمت فساد الإدارة في الحكم .
ثم أصدر صحيفة (اعتدال) بالعربية والتركية ، ما لبثت أن توقفت أيضاً . عمل في أعمال كثيرة منها الصحافة والمحاماة ، واستلم مناصب متعددة كرئاسة غرفة تجارة حلب ، ورئاسة
البلدية .
حكم عليه بالإعدام لكنّه برّيء عندما دافع عن نفسه بعد انتقال محاكمته إلى بيروت .
ثم هاجر إلى مصر ليتابع نشر فكره الإصلاحي بعيداً عن ضغط استبداد الحكومة ، وكان يحمل معه مخطوطي(أم القرى) و (طبائع الاستبداد) حيث نشر فصولهما في الصحف المصرية حتى ذاع صيته .
ثم سافر إلى آسيا وأفريقيا للتعرف إلى أحوال العرب والمسلمين هناك ، ولكن ما لبث أن عاد حيث دسّ له السم في
فنجان قهوة بإيعاز من السلطات، وبموته فقدنا أحد أقطاب الفكر العربي الحديث. كانت صحافته مفقودة ، حتى عثر على بعضها الباحث (جان داية) في إحدى جامعات ألمانيا مؤخراً ، ونشرها في كتاب (صحافة الكواكبي) وقد تناولته بالدراسة في
كتابي (الاستبداد وبدائله في فكر الكواكبي) أما مؤلفاته المفقودة التي لم يتم العثور عليها فهي:
(صحائف قريش . العظمة لله .
أمراض المسلمين والأدوية الشافية لها . أحسن ما كان في أسباب العمران . ماذا
أصابنا ؟ وكيف السلامة ؟) .
أما كتاب (طبائع الاستبداد) فهو أهم ما كتب الكواكبي.
ومن خلاله استطاع أن ينهض بفكره وسط القمع والجهل والتخلّف.
عاش الكواكبي واقعاً موبوءاً بسيطرة العثمانيين من جهة ، وبجهل مواطنيه وتخلّفهم من جهة ثانية، وهو المطلّع
على أفكار التحرر الأوروبية والمتشبّع بالأفكار الإسلامية الأصلية ، مستنداً إلى تراث عربيّ عريق . وقد لاحظ الواقع الفاسد ، وتساءل عن أسباب التدهور (الذي يسميه الفتور) لدى الشعوب الإسلامية عموماً ، والأمة العربية
خصوصاً ، ورأى أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

عاش الكواكبي واقعاً موبوءاً بسيطرة العثمانيين من جهة ، وبجهل مواطنيه وتخلّفهم من جهة ثانية، وهو المطلّع على أفكار التحرر الأوروبية والمتشبّع بالأفكار الإسلامية الأصلية ، مستنداً إلى تراث عربيّ عريق . وقد لاحظ الواقع الفاسد ، وتساءل عن أسباب التدهور (الذي يسميه الفتور) لدى الشعوب الإسلامية عموماً

.دينية وسياسية وأخلاقية ، حيث انتشرت عقيدة الجبر وساد الجدل والتشديد وفشا الزهد والتهاون ، مما أدّى إلى تحريف الدين ، وفقدان الحرية في ظل السلطة المطلقة والحكم المركزي ، وقد تفرق المسلمون إلى أحزاب وفرق ، فانعدم التنظيم والعدالة والمساواة والشورى ، وكثر النسل ، وفقدت التربية ، وأهمل
تعليم النساء ...
هذا في حين أن الإسلام أتاح للمسلمين فرصة الالتقاء والتشاور عن طريق الجمعة والجماعة والحج ، وأرشدهم إلى الشورى والعدالة ، وخصّهم على طلب العلم .
بعد مناقشة تلك الأسباب العديدة حاول الكواكبي أن يرجع الشرور الاجتماعية كلّها إلى عامل يؤدي إلى تعطيل النظام
السياسي المنوط به كل شيء في النهاية ، فاكتشف الاستبداد ، علة العلل ، وذلك لأنه رأى أن التخصص في العلة
يؤدي إلى التخصص في الحل .
يقول بعد ثلاثين عاماً من الدراسة : " تمحّص عندي أن أصل الداء هو الاستبداد
السياسي " . وأن الانحطاط عرض له ، والاستبداد في حقيقته سياسي يستند إلى أيديولوجيا فكرية إلى جانب الجيش والمال حيث تجتمع عناصر الاستبداد الأساسية، الفكر والثروة والسلاح ، وذلك لأن السياسة هي التي تسيطر على المؤسسات الأخرى في النهاية .
وقد عرّف الكواكبي أن الاستبداد لغةً بقوله : " هو استئثار المرء في ما تجب عليه المشاركة فيه " وعرّفه اصطلاحاً بقوله " هو تصرّف فرد في حقوق القوم بلا حسيب ولا رقيب "يقول " ويراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحكومات خاصة " .
فالاستبداد الأكبر هو الاستبداد السياسي الذي تنطوي تحته كل الاستبدادات ، وهو تصرف أشخاص السلطة الحكومية في حقوق الشعب من غير قانون بما يخدم أهواءهم ومصالحهم .
ويفرّق الكواكبي بين السياسة والاستبداد ، فالسياسة هي إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة ، أما الاستبداد فهو التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى .
ويمكن أن يقوم بالاستبداد فرد أو جماعة ، و على اختلاف أشكاله يتمثل بغياب القانون أو تغييبه من خلال
إمكان الحكّام إبطال قوة القيد متى شاؤوا .
نستدل على الحكومات المستبدة من ملاحظة غلوائها في مظاهر فارغة كعظمة الاحتفالات ومراسم التشريفات ، وتعظيم الملوك وفخامة القصور ، وعلائم الأبّهة التي تحاول بها التعويض عما ينقصها من الحكمة في إدارة شؤون البلاد ، ومن تحضيرها استخدام كلمات مثل حرية . وجمعية ، ومواطن ، ووطن ، وحقوق .
وانتشار ألفاظ التعظيم فيها مثل " سيدي ، وعبدكم ، والمولى المقدس .. الخ " .
ويرى الكواكبي أن الحكومات التي تغفل عنها الأمة تنقلب إلى مستبدة ، معتمدة على الجهل والجنود والأثرياء
والمتمجدين والمتعممين (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) ومن أهم دعائم الاستبداد هم أسراه (كما تكونوا يولّ عليكم) فمسؤولية الاستبداد تقع على العلماء أوّلاً ثم على العامة ، كل بحسب درجة وعيه . ويعتمد المستبد . أيضاً . على جبن الرعية (ولو رأى الظالم إلى جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم).
أما عن علاقات الاستبداد وآثاره فيرى الكواكبي أن الاستبداد يفسد كل ما له علاقة به فيحرف الدين ويفسد
الأخلاق ، ويعزز التفاوت ويفرق الجماعات ، حتى ينقلب الناس إلى مستعبدين صغار في كنف المستعبد الأكبر .
فالاستبداد ليس حاكماً وحسب ، إنه نظام شامل من الأعوان والطفيليات المستفيدة من واقع فاسد ، لذلك لا بدّ من
إزالة الاستبداد واستبداله مبتدئين بإصلاح الدين في أذهان المسلمين .
لقد رأينا عند الكواكبي أربعة أشكال استبدادية ، صنّفت بحسب الهيئة الصادر عنها ، وفي مقابلتها يضع الكواكبي المساواة والحرية والعدالة والشورى الدستورية . فالمساواة في

الكواكبي يضع ثلاثة شروط مبدئية لرفع الاستبداد واستبداله وهي : ـ شعور الأمة بآلام الاستبداد ، والتدّرج وتهيئة البديل ، فمن أراد تخليص أمته من أسر الاستبداد ، عليه أولاً أن يبث فيها العلم بسوء حالتها . وأن يبيّن لها إمكانية التغيير

الحقوق والواجبات بين الناس تأتي في مقابل استبداد الاصلاء فيحاكم الملك والصعلوك أمام القضاء على السواء ، وحرية التدين والتفكير والاجتهاد مقابل استبداد المتعممين وهنا ينطلق الكواكبي من مقولة (لا إكراه في الدين) حيث يزول التعصب ويسود التسامح بين أصحاب الأديان المختلفة بمقارعة الحاكم الذي ينوي أن يستبد، وتأتي العدالة عموماً والعدالة الاقتصادية
خصوصاً مقابل الاستغلال، أما الشورى الدستورية فهي بديل الاستبداد السياسي وبفضلها يتم تحقيق العدالة
والمساواة والحرية انطلاقاً من وأمرهم شورى بينهم و وشاورهم في الأمر .

يقول الكواكبي : " تمحّص عندي أن أصل الداء هو الاستبداد السياسي ، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية " التي تلزم الحاكم بها ويقوم بها أهل الحل والعقد ، ولهم حق محاسبة الحكومة لأنهم وكلاء الأمة. على أن يكونوا وكلاء مؤتمنين . على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم ، ولا يتحقق هذا الأمر إلاّ بالإسلامية التي تفصح عن نفسها بوصفها حلاً شاملاً لمشكلات المجتمع (الفكرية والدينية والاقتصادية والسياسية) .

وهنا يميّز الكواكبي بين الإسلام والمسلمين والإسلامية ، فالإسلامية ليست ما يدين به المسلمون الآن ، ولكنها المنهج المشتق من الإسلام الصحيح الذي ينبثق من القرآن الكريم وصحيح السنة وثابت الإجماع، والإسلامية
تختص بالمعاملات ولا شأن لها بالعبادات يقول الكواكبي " لقد جاءت الإسلامية بقواعد شرعية ... وأناطت تنفيذها بالحكومة " فالحكومة ليست صاحبة القرار وواضعة القوانين ، وما هي إلاّ منفذ لنظام الإسلامية التي تستند إلى قواعد تشريعية .

فالقانون يُستمد من الشريعة ويعبّر عن إرادة الأمة ، ولا يمكن صيانة حقوق الأمة إلاّ بالمراقبة والمحاسبة ، لأن الحكومة التي لا تحاسَب تستبد .

إن من أهم وظائف الحكومة عند الكواكبي المحافظة على حقوق الناس ، وحراسة أمنهم، ونشر العدالة بينهم .

ونحن عندما نقرأ الكواكبي كثيراً ما يذهلنا من خلال تحديد معانيه بدقة فهو يطالب بعدالة توزيع الأعمال والعائدات فإذا فهمنا كيف يكون توزيع العائدات فكيف توزَّع الأعمال إذن . لنفترض أن شخصين عملا فأخذ كل منهما العائدات التي يستحق . أما توزيع الأعمال فيكون عندما لا تسمح الحكومة لأحد ما بأن تكون لديه خمسة أعمال وهناك شخص عاطل عن العمل .

لدى الكواكبي كتابان، وهو يطرح مفاهيمه بدقة في هذين الكتابين ، ونحن نتحدث عن فكر الكواكبي كله من حيث صحافتُه وكتاباه ، وهو في هذه الأعمال يحدد عمل الحكومة ويرسم حدودها . لمجمل هذه الحراسات ينتخب الشعب حكومته . أما إذا اختلفت الحكومة مع الأمة في اعتبار الصالح والمضر لأمر ما يتعلق بحالة حرب أو سلم أو بأمر يتعلق بالدين ، ما الذي حدث ؟ الكواكبي يجيب عن ذلك بكل بساطة على الحكومة أنت تعتزل الحكم إن الأمة أوجدت الحكومة لتخدمها فإذا زالت هذه المهمة لم يعد للحكومة من مسوغ لبقائها .

لقد عرفنا الاستبداد وبدائله ، وفي كل عمل لا بد من معرفة الواقع ومن معرفة الطريق الواصلة إلى غايتنا لنتمكن من تحقيقها .

هناك إذن منطلق ومنهج وهدف .

فكيف يجري الإصلاح ويُزال الاستبداد و تُقام الإسلامية ؟

إن نقطة البداية تتركز في إدراك معظمِ المواطنين أنهم يعيشون واقعاً فاسداً يتطلب الإصلاح ، وهذا يتحقق عن
طريق تنمية الوعي تدريجياً لإصلاح الدين وإنشاء جمعية تُعنى بتحقيق الإسلامية .

والكواكبي يضع ثلاثة شروط مبدئية لرفع الاستبداد واستبداله وهي :
ـ شعور الأمة بآلام الاستبداد ، والتدّرج وتهيئة البديل ، فمن أراد تخليص أمته من أسر الاستبداد ، عليه أولاً أن يبث فيها العلم بسوء حالتها . وأن يبيّن لها إمكانية التغيير، ومتى ارتفع الجهل وتنوّر العقل زال الخوف حتى ينادي الناس مع المعري :

إذا لم تقمْ بالعدلِ فينا حكومةٌ
فنحنُ على تغييرِها قُدَراءُ

فالوعي هو أول خطوة على طريق إزالة الاستبداد ، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يبعث في أمته الحياة ويوقظها على الشعور بآلام الاستبداد ؟ ومن المكلف بذلك ؟

إنه الإنسان الذي يجهد في ترقية معارفه ، ويحافظ على آداب قومه ، محتفظاً بوقاره متجانباً مصاحبة الحكام ، وملتزماً بحسن الأخلاق ، يحب وطنه ، ويساعد الضعفاء ، ويغار على الدين .

إن مقاومة الاستبداد أمر مكلف به كل فرد في الأمة وقد قال تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وهو متعيّن على كل فرد لأنه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

والأمة التي لا تشعر بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية يقول الكواكبي : " إن الحرية التي لا تنفع الأمة هي التي تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها " . فلا بد من التدريج ببث الوعي ، حتى إذا عم الوعي واجتمع الرأي بدأت الحملة على
الاستبداد ، فلا ينبغي أن يُقاوَم الاستبداد بالعنف العشوائي كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً ثم لا تثمر شيئاً . أما إذا اشتد الاستبداد وانفجرت الفتنة ومارست الحكومة استعراءها ، فلا بد حينذاك من استخدام القوة لأن القوة لا تقابل إلاّ بالقوة (والجدير بالذكر أن جمال عبد الناصر قد تأثر بالكواكبي وأعجب بأعماله ، ويبدو لنا ذلك من قوله " ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ") .

لذلك على الأمة التي يحكمها الاستبداد ويمنعها من استخدام الإصلاح التدريجي بالكلمة الطيبة ، لا بد من أن تقاومه بكل ما أوتيت من القوة .

لقد اختار الكواكبي الحل التدريجي الإصلاحي وهو يؤمن بأن ما لا يتغير بالإصلاح يجب تغييره بالثورة ، فالإنسان هنا لا يستخدم القوة إلاّ إذا جوبه بها . فما الإصلاح الذي يطلبه سوى ثورة مرجأة لا ينبغي القيام بها قبل التأكد من إمكانات نجاحها وإعداد الناس لها . ويجب ألا تكون الفوارق الدينية عائقاً للاتحاد الوطني ، كما يجب أن لا تكون الفوارق الوطنية عائقاً للاتحاد الديني بين الأمم وقد بنيت الأديان على (لا إله إلا الله).

لقد رأى أن إصلاح الدين هو أقرب طريق لإصلاح السياسة ، فدعا إلى إنشاء جمعية تهتم بالإصلاح الديني . والكواكبي يقدم مشروعاً متكاملاً مفصلاً لتلك الجمعية التي يسميها في (أم القرى)
(جمعية تعليم الموحدين) ، ويسلم قيادها للعرب . وباختصار فإن الكواكبي يستعرض كل أشكال مكافحة الاستبداد ليختار الأصلح فإما أن نقاوم الاستبداد : بالقوة ، أي بالعنف ، لكنه لم يرض باستبداد الأشخاص والإبقاء على الاستبداد بغيرهم . أو بالثورة التي قد تنقلب إلى الاستبداد ما لم يكن قد تم التخطيط لقيامها .

والثورة الحقيقية تكون بقيام حكومة لا علاقة لها بالاستبداد ولا علاقة للقائمين عليها بالثورة حتى لا يغتنم الثوار كل فرصة سانحة لتذكير الناس بضريبة التحرير .

أو بالانتظار والهدوء والاستكانة ، ولكن ليس للأمة من يحك جلدها غير ظفرها .

فإنّ الأمَّ لم ترضعْ صبيّاً
مع الإشفاقِ لو سكتَ الغلامُ

أو بالتدريج الذي يجهّز الرأيّ ويبث العلم ليصبح الناس هم أصحاب التغيير ويتحملون المسؤولية . وقد اختار الكواكبي الطرائق السالفة جميعها بنسب مختلفة وبحسب حالة البلاد التي يريد أهلها التغيير ، ولكنه عموما يفضل الحرب بالوعي على الحرب بالعنف وقد دعا قومه إلى البدء بتغيير الذات ولم يتستر عليهم بلوم الآخرين ، وقرر أن الحل يأتي عن طريق : وعي كل إنسان أنه مسؤول ، وإيجاد روابط تضم إمكانيات الناس وتوجههم ، وإعداد العدّة لمقاومة الاستبداد
(وأعدوا لهم ما استطعتم ..) وتهديد الحكومة القائمة ومقاطعتها ومن ثم مقاومتها ، ثم وضع البديل وإبقاء الرابطة الدينية بعيداً عن التقلّبات السياسية . وما هذا الطريق الذي يرسمه الكواكبي إلاّ انطلاق من قدرات الإنسان لصالح الإنسان نفسه ، آخذا بعين الاعتبار منطلقاته التراثية بوصفه ينتمي إلى العروبة والإسلام .

وفي أثناء الأعوام، الصاخبة من حياة الكواكبي، التي تعرّض فيها للظلم والسجن وصودرت ممتلكاته، كان يضع فصول كتابه " أم القرى " الذي قال (كامل الغزّي) أنّه اطّلع عليه في حلب، وقال ابنه (الدكتور أسعد الكواكبي)
أنّه بيّضه له وهو في حلب. كما كان يضع بعض أفكار كتابه الثاني " طبائع الاستبداد " . ولكي يتخلّص من إلحاح السلطة العثمانيّة عليه بالتعامل معها، إذ سلّمته قراراً بتعيينه نائباً شرعياً في قضاء "راشيّا" في ولاية "سورية" ، فتظاهر بالموافقة، وقرّر الهجرة إلى مصر سرّاً، بحجّة أنّه سيقوم بزيارة إلى "استانبول" .

وصل إلى القاهرة في منتصف شهر تشرين الثاني سنة (١٣١٧هـ = ١٨٩٩م)، حيث التقى بالمفكّرين والأدباء، وشارك في الحركة الفكريّة في "مصر" ، وهناك ذاع صيته إبّان نشره مقالات "طبائع الاستبداد" في صحيفة "المؤيّد"
لـ (علي يوسف)، وبعد إصداره كتاب "أم القرى" باسم مستعار هو (السيّد الفراتي)، ثم أصدر "طبائع الاستبداد" تحت اسم (الرحالة ك)، وكتب فصولاً من " أم القرى" في صحيفة "المنار" ، سنة (١٣١٨هـ = ١٩٠٠م) بعد حذف اقترحه (محمد رشيد رضا) تحسّباً من السلطة.

وفي سنة (١٣١٩هـ= ١٩٠١م) قام برحلة اطّلاعيّة إلى البلدان العربيّة والإسلاميّة، ليدرس أحوالها، وهناك دوّن خواطره ليُصدرها في كتاب، ولكنّ وفاته المفاجئة حالت دون ذلك. فقد توفي مساء الخميس في (٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ)، الموافق (١٤ حزيران عام ١٩٠٢م)، على إثر احتسائه (فنجان قهوة) في مقهى (يلدز) قرب حديقة (الأزبكية) بالقاهرة. مات مسموماً على أيدي أعوان السلطان (عبدالحميد الثاني)، الملقّب بالسلطان الأحمر، الذي أرسل من دسّ له السم في فنجانه. فبعد أن احتسى القهوة، بنصف ساعة، أحسّ بألم في أمعائه، فانتقل إلى داره، وكان معه ابنه (كاظم)، ثمّ، في منتصف الليل، ذهب ابنه لإحضار الطبيب، ولما عاد ومعه الطبيب وجداه ميتاً. وفي اليوم التالي أمر السلطان (عبدالحميد الثاني)
أحد أعوانه (عبدالقادر القبّاني) صاحب "ثمرات الفنون" التي كانت تصدر في بيروت، أن يقصد محلّ إقامة الكواكبي، ويحرز جميع أوراقه، ويرسلها إليه.. وقد فعل ذلك في اليوم التالي لوفاته.دُفن في قرافة باب الوزير على سطح جبل المقطّم، وبعد أربعين عاماً نقلت رفاته في احتفال ديني إلى مقبرة المشاهير في شارع العفيفي بمنطقة باب الوزير، وكُتب اسمه وتاريخ وفاته وتاريخ نقله، على صفحة من المرمر، كُتب عليها بيتان لحافظ إبراهيم :

هنا خيرُ مظلومٍ هنا خير كاتبٍ
عليهِ فهذا القبر قبرُ الكواكبي
هنا رجل الدّنيا هنا مهبط التُّقَى
قفوا واقرؤوا " أمّ الكتاب " وسلّموا.

مجلة الف باء
حزيران ١٩٨٨

صورة حقوق الإنسان في الفكر العربي الحديث.. الكواكبي نموذجاً

د. عبدالرزاق عيد

توفي الكواكبي في ١٣ (حزيران) من عام ١٩٠٢م في القاهرة بالذات، بعد أن احتسى فنجاناً من القهوة في (مقهى يلدز) بالقرب من حديقة الأزبكية، شعر بعدها بالآلام في أمعائه، وأخذ يتفوع وقبل أن يحضر الطبيب توفي. وقيل إنه مات مسموماً بأمر من السلطان عبد الحميد بالذات.

ولد الكواكبي ولد في حلب (١٨٥٤-١٨٥٥) من أسرة ارستقراطية، وهي ارستقراطية الأشراف المؤسسة على العلم والأدوار الوظيفية العليا، فقد كان أبوه الشيخ أحمد بهاء الكواكبي عالماً شغل عضوية مجلس إدارة الولاية، وأمانة الفتوى.

وقد ذكر بعض المؤرخين لحياته أنه يعود بنسبه إلى آل البيت، حيث يعود نسب أسرة الكواكبي إلى علي بن أبي طالب(ع)، وكانت قد شغلت منصبٍ (نقابة الأشراف).

تلقى علومه طفلاً في إنطاكية على يد المعلم نجيب النقيب، وهي علوم تقليدية (تعليم القرآن والحديث والفقه واللغات العربية والتركية والفارسية) وتلقى بعض العلوم العصرية على يد الأديب التركي خورشيد، حيث كان الكواكبي ينتقل بين حلب وإنطاكية.

بدأ حياته الكتابية في مدينة حلب بالالتحاق بأسرة تحرير جريدة (الفرات) التي تصدر باللغتين العربية والتركية، وكانت الجريدة الرسمية التي تصدرها الحكومة، وقد أسسها أحمد جودت باشا والي حلب عام (١٧٦٧)، ثم ما لبث أن آثر الاستقلال عن الجريدة الرسمية الحكومية فأنشأ مع هاشم العطار صحيفة باسم (الشهباء) وهي أول جريدة صدرت في حلب باللغة العربية وحدها، وبسبب نزعتها النقدية الحادة للسلطنة العثمانية أغلقها والي حلب ولم يكن قد صدر منها إلا ستة عشر عدداً، فبادر بعد إغلاقها إلى إصدار جريدة باللغتين العربية والتركية باسم (اعتدال)، لكنها ما لبثت بعد فترة قصيرة أن أغلقت من قبل والي حلب جميل باشا رغم أنه عرف عنه اعتداله واستنارته، ومع ذلك وجد جميل باشا في جريدة (الاعتدال) أنها أبعد ما تكون عن الاعتدال.

لقد شعرت السلطة بخطره، فحاولت استمالته بتعيينه عضواً فخرياً في لجنتي المعارف والمالية وتقلب بعد ذلك في وظائف حكومية عدة، إدارية وقضائية، ما لبث أن استقال منها عام (١٨٨٦م) ليمارس مهنة المحاماة، وليدخل في مواجهات مباشرة مع الإدارة ونظام الحكم العثماني، فحاول السلطان عبد الحميد استمالته ليضمه إلى حاشيته فعينه قاضياً على مدينة راشيا بـ(لبنان)، لكنه أبى رافضاً هذا العرض، وتوجه سراً إلى مصر مع ابنه الأكبر كاظم، وذلك في منتصف تشرين الثاني من عام ١٨٩٨م، ويبدو أن أحد تلاميذه المستنيرين والمناهضين للترك وهو الصحفي (عبد المسيح الانطاكي) الذي كان قد سبقه إلى مصر قد ساعد على هذا التوجه. قبل رحيله إلى مصر كان الكواكبي دائم الاتصال بمثقفي البلاد الأجنبية الذين يؤمّون حلب متاجرين أو سائحين أو موظفين في إحدى القنصليات، وحلب في تلك الفترة كما يصفها عباس محمود العقاد في صدد حديثه عن الكواكبي: (مدينة حل وترحال غير منقطعة عن العالم، ولم تنفصل قط عن حوادثه وأطواره، كأنها المرقب الذي تنعكس فيه الأرصاد فلا تخفى عليه خافية، ولا ينعزل بنوها عن دانية ولا نائية). ولهذا فمنذ حلوله في مصر كان قد اكتملت مكونات تجربته الفكرية والسياسية، فراح ينشر كتابه الشهير (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) الذي كتبه قبل وصوله إلى القاهرة، فقام بتنقيحه والزيادة عليه، وهو ينشره فصولاً في جريدة (المؤيد) لصاحبها علي الليثي، موقعة بلقب (الرحالة كاف) فذاع صيته وعرف في الأوساط الثقافية، بلغت شهرته الخديوي عباس، الذي كان يتطلع إلى تحويل مركز الخلافة الإسلامية من الترك إلى العرب، على أن يكون هو سلطانها الزمني وشريف مكة خليفتها الروحي، ويقال بأن الخديوي كان وراء رحلة الكواكبي في أنحاء البلاد العربية للدعوة إلى الخلافة العربية، في حين يشير حفيده سعد زغلول الكواكبي إلى أنه: (لم يذكر هذا القول إلا من قبل بعض الصحفيين من دون أي دليل)، تلك الرحلة التي كان منشؤها أن يكون ثمرتها كتابه (أم القرى)، وكان كتابه هذا دفاعاً عن الجامعة الإسلامية ووحدتها وصلاحها في ظل خلافة عربية.

توفي الكواكبي في ١٣ (حزيران) من عام ١٩٠٢م في القاهرة بالذات، بعد أن احتسى فنجاناً من القهوة في (مقهى يلدز) بالقرب من حديقة الأزبكية، شعر بعدها بالآلام في أمعائه، وأخذ يتفوع وقبل أن يحضر الطبيب توفي. وقيل إنه مات مسموما بأمر من السلطان عبد الحميد بالذات.

الكواكبي – حقوق الإنسان:

إن النهاية الدرامية التي آلت إليها حياة الكواكبي، تعطيه فرادة نوعية خاصة في تاريخ تكون المثقف العربي عبر التحولات التاريخية لصورة هذا المثقف من تخلقه الاجتماعي الأول في نموذج (القراء) حفظة القرآن، إلى نموذج (الفقهاء) وعاظ السلطان بدءاً من التاريخ الأموي، وصولاً إلى ما يدعى (العلماء) في هذا الزمان أي: رجال الدين، وذلك ضمن نسق نموذج (الأصالة) التراثي، بالتوازي -في العصر الحديث- مع ولادة المثقف كمعطى نوعي جديد من حيث الوظيفة والأداء عالميا، وذلك مع بدء زمن الحداثة الجديد بعد الثورة الصناعية، وقيام المجتمع المدني بوصفه مجتمع الشعب لا مجتمع الرعية، مجتمع الأمة حيث انتماء المواطنة المجتمع الملة حيث انتماء الطائفة والمذهب، هذا الزمن الحديث سيعطي للمثقف تعريفاً جديداً يتساوق مع الوظيفة الاجتماعية التي انتجها الاستقطاب الاجتماعي الأفقي السوسيولوجي الرأسمالي على أنقاض بنى المجتمع القروسطي الإقطاعي العمودي في روابطه الاجتماعية: حيث رابطة الدم والقرابة الأسرية والعائلية، وبناه المفاهيمية والثقافية التي تتهيكل في مصفوفات الملل والنحل، لكن مع الزمن الحديث هذا سيغدو (المتلقي) لرسالة المثقف هو المجتمع، وفضاؤه الحياة العامة، هذا الزمن سيشهد ولادة المثقف (ذي الأنف الطويل) حسب تعبير سارتر، ذاك المثقف الذي يدس أنفه في شؤون المجتمع في شتّى حيزاته السياسية والثقافية والاجتماعية، وهو في فضوله المجتمعي، معرفة وفعلا وتغييرا تكمن ثقافته كمثقف تعريفا، ولهذا تكثفت في الكواكبي كل هذه المميزات للمثقف العربي الإسلامي الحديث الذي ليس له في ميراثه الثقافي والتراثي العربي الإسلامي نسباً، لأن زمنه لم يلج زمن الحداثة المنتج للمثقف الإشكالي ذي الأنف الطويل، قد نجد أصولا مرجعية لحسه التاريخي وهو يحلل الأخلاق والتربية والدين والترقي في النظرية الخلدونية عن العمران، حيث رؤية العمران في ارتقائه وانحطاطه بوصفه ثمرة سيروراته الداخلية الضاربة صفحا عن الغيب، لكن الكواكبي لا يرى في حياة ابن خلدون سوى حياة الذل، فهو (الذي خطأ أمجاد البشر في أقدامهم على الخطر إذا هدد مجدهم).

قد نجد مثالاً له في التراث العقلاني الفلسفي في نموذج ابن رشد الذي فصل بين علوم العقل (الحكمة) وعلوم النقل (الشريعة)، معتبراً أن لكل حقل آلته (البرهانية) حيث للعلوم الأولى (العقل) والثانية (الأيمان). للأولى الحياة، وللثانية الآخرة. يتوجه الكواكبي إلى العرب من غير المسلمين (المسيحين) مخاطباً إياهم حاضاً إياهم على الوحدة الوطنية مع المسلمين انطلاقاً من وحدة الأمة ووحدة الوطن قائلاً: (دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط). لكن إشكالية ابن رشد المثقف مع زمنه كان مدخلها الاصطدام مع المؤسسة الدينية التي انتحلت صفة المؤسسة (الكهنوتية) الغريبة عن روح الإسلام، إذ حرضت السلطة الدينية على ابن رشد، فكان صدام ابن رشد مع الاستبداد الديني للمؤسسة الفقهية الرجعية لزمنه، بينما كان مدخل الكواكبي للاصطدام بـ (الكهنوت) هو اصطدامه مع السلطة السياسية، عندها سيتكشف له تلازم الاستبداد السياسي مع الاستبداد الديني بوصفهما صنوين على حد تعبيره. ولهذا فليس هناك نظير للكواكبي – عربيا– في عنف سجاله مع سلطة الاستبداد بشقيها الديني والسياسي إلا في نموذج المثقف التنويري في العصر الحديث، ولعل النموذج الأقرب له في موقفه الناقد الهجاء، العاصف، هو فولتير الذي كان (بنظرته الخاصة إلى الحرية والمساواة والملكية، الملهم الأساسي لواضعي شرعة حقوق الإنسان في عام ١٧٨٩ لكن ما يميز الكواكبي العربي عن فولتير الفرنسي، هو أن نظام الاستبداد العثماني الشرقي كان أكثر شراسة من احتمال حممه البركانية المزلزلة لثباته، فقدم له كأساً من السم.

مجلة الهلال كانون الاول ١٩٩٤

الشهباء نموذج صحافة العرب في العهد العثماني

د.محمد حسين الزبيدي

شهد العصر الحديث بروز كوكبة من رواد النهضة العربية الحديثة حملوا بأيديهم مشاعل الحرية لينيروا للأجيال المقبلة دروب الحياة الفكرية وتحملوا لوحدهم عبء الحياة ووطأتها لينبهوا الشعب العربي والاسلامي الى تعسف الظالمين، والمستبعدين والطغاة من الحكام الذين حكموا باسم الدين وساسوا الرعية باسم الحرية.

كان بين هؤلاء الرواد عبد الرحمن الكوكبي ، لقد وقف هذا الرجل في وجه أعتى سلطان عرفه العصر الحديث هو السلطان عبد الحميد، وقف ببسالة نادرة وشجاعة فريدة في عصر كان فيه الهمس محرماً.

الحرية..!الكواكبي والسلطان عبد الحميد

محرر في (فرات)

عمل الكواكبي في مستهل حياته النضالية وهو ابن الثانية والعشرين من عمره محررا في صحيفة (فرات) العربية في حلب التي انشأها المؤرخ التركي (احمد جودت باشا) وقد حرر مع الكواكبي في هذه الجريدة من اعلام حلب، كامل الغزي ومحمد الحنفي ، وظلت هذه الصحيفة توالي صدورها اربعا واربعين عاما حتى عام ١٩١١، وقد تجلت مواهب الكواكبي وقدراته الفذة فيها وجعل مع اصحابه – من هذه الصحيفة منبرا لمخاطبة الحكام وحلبة لمنازلتهم وميدانا لفضح جرائمهم ، فاثارت مقالاتهم هذه ضمير الشعب والهبت فيه العزائم واحيت الهمم في النفوس، وقد اقبل الناس على هذه الجرائد، اقبالا شديدا، حيث وجدوا فيها خير معبر عن مشاعرهم في مواجهة الحاكم المتجبر، ووسيلة لتحدي السلطان وبطشه.

لقد حاولت السلطة العثمانية ان تشتري قلمه وتسكت لسانه وان تحوله من مناضل الى اجير.. ومن ثائر يشهر قلمه في وجه الظلم والاستبداد..الى بوق للحاكم وداعية له ، فعينته بعد عام من عمله في الجريدة محررا رسميا براتب (٨ ليرات عثمانية) وهو راتب محترم بالنسبة لرواتب ذلك العصر، ولكن الكواكبي لم يطق البقاء طويلا في هذا العمل فتركه، وانشأ جريدة يحررها بالاشتراك مع هاشم العطار سماها (الشهباء) عام ١٢٩٣ هـ ١٨٧٨ م فكانت اول صحيفة عربية خالصة الفكر والاتجاه والعقيدة تشهدها ولاية حلب، وقد وصف كامل الغزي هذه الجريدة قائلاً:

"ان هذه الصحيفة كانت اول معلن اذاع بين الناس فضل هذا العبقري، وكشف لهم عما كان منطويا عليه من المنزلة الرفيعة في عالم السياسة والادب، ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة واقبلوا عليها ايما اقبال".

وجد الكواكبي الثائر المؤمن يواجه الحاكم المتجبر ويتحدى السلطان وبطشه بشجاعة نادرة متحديا كل انواع التعسف والعنف والاضطهاد.

مواجهة مع الحاكم

وقد وجد الكواكبي الثائر المؤمن يواجه الحاكم المتجبر ويتحدى السلطان وبطشه بشجاعة نادرة متحديا كل انواع التعسف والعنف والاضطهاد، ولم يستطع الوالي العثماني (كامل باشا القبرصي) الملقب بعدو الحرية والصحافة ان يصبر طويلاً على الكواكبي، فقد كانت مقالاته النارية قد ارقته وايقظت الشعب من سباته، وأوشك ان تجتاح البلاد ثورة عارمة على الحكم العثماني فأغلق الجريدة بعد ان صدر منها خمسة عشر عدداً فقط.

ويذكر لنا الغزي اسباب غلق الجريدة ، فيقول : "غير انهم لسوء الحظ لم يتسعوا بأستجلاء محاسن هذه البكر الوحيد سوى ايام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الوجل".

ويعلل الغزي سبب غلق الجريدة الى تسرع الكواكبي في الاصلاح ونقده الكثير الموجه الى اعمال الوالي وموظفي ولايته مشيراً من طرف خفي الى استبداد السلطان عبد الحميد وانانيته المفرطة في تثبيت سلطانه في الوقت الذي كانت الصحف التركية والعربية تكيل المدح للسلطان، ويغالي محرورها بالاغداق عليه بالالقاب والمدائح، مما لم ينله قبله ملك او سلطان فهو عندهم شاهنشاه ملك الملوك وملجأ الخلافة وبأني الدنيا وظل الله في الارض، والسلطان الاعظم والذات الاقدس.

خطاب عبد الرحمن الكواكبي

شاكر فريد حسن

عبد الرحمن الكواكبي من ممثلي التيار والاتجاه الاسلامي التنويري والطليعة المثقفة الواعية والشريحة النيّرة، التي سعت الى تلمس وتشخيص الداء في العطب الاجتماعي، واصطدمت أفكارها التجديدية ومعارفها العلمية وتطلعاتها الثورية نحو الحرية والديمقراطية بميراث الأمية والتخلف والاستبداد.

كان الكواكبي طوال حياته داعية للخير وصلاح الأمة ووظف قلمه وفكره لخدمة الوطن، غير مبال بما ينفقه في هذا السبيل ، فاهتم بتنوير الناس والرقي بالحياة الشعبيّة، ورفع مشعل الدعوة الى العلم ومقاومة الأوهام والخرافات والخزعبلات وطالب بتحرير المرأة لتكون شريكة فعالة في بناء الوطن الكريم والمجتمع الانساني الحر والديمقراطي.

ضمّن الكواكبي كتبه تحليلاً دقيقاً وعميقاً للأمراض والأوبئة الاجتماعية والسياسية، وشن حملات شديدة وعنيفة على السلطة العثمانية القمعية، ودعا الى الحرية السياسية واحترام النهج العقلاني في التفكير، والى الكفاح السياسي المنظم ضد السيطرة الاستبدادية التركية والاستعمارية الغربية.

وضع الكواكبي عدداً من الاثار المهمة والجليلة المكرسة للحياة والأوضاع الاجتماعية والسياسية في الدولة العثمانية منها: "طبائع الاستبداد" و"أم القرى".

أدرك الكواكبي بحسه وفكره وعقله مدى الظلم والغبن والاجحاف والقهر والاستبداد الذي يعيشه السواد الأعظم من الناس ، لذا عمل على انهاض الهمم وتحرير العرائض والشكاوى بعد أن اغلقت صحفه التي أصدرها في حلب(الشهباء والاعتدال وفرات) فطاردته السلطة العثمانية وزجت به في غياهب السجن. ودفعته هذه التجارب الى التأمل في طبيعة المستبد والعلاقة بينه وبين الشعب المقموع ، ورأى ان انحطاط الأمة وتدهور المجتمعات الشرقية والاسلامية سببه ومرده غياب الحرية والديمقراطية وسيطرة القمع والاستبداد السياسي والفكري ، وان البلسم الشافي والدواء الناجع له هو الشورى الدستورية.

ويختلف الخطاب التنويري لعبد الرحمن الكواكبي عن خطاب معاصريه من رجالات الدين وشيوخ الاسلام عن وعي الذات العربية لدى محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي والبحث عن العلاقة بين الشرق والغرب والاستعاضة عنها بمعالجة العلاقة بين الأتراك والعرب بالأساس .

استطاع عبد الرحمن الكواكبي التغلغل والغوص في عمق الظواهر السلبية في المجتمع الاسلامي والعربي ومناقشتها وتحليلها بروية ووفق المعتقدات والمفاهيم والأفكار التنويرية، التي امن بها واستقاها من الثقافة والحضارة الغربية ، وأسهم في بلورة فكر جديد ينسجم مع طبيعة ومتطلبات المرحلة التي عاش فيها واستشراق أفق ومستقبل الفكر العربي الناهض . وغني عن القول أن الكواكبي، وبحق، من أعظم رجالات الحرية في النهضة العربية المعاصرة وقد اغنى بمنهجه العقلي ونقاشاته وفكره تراثنا الفلسفي والفكري العربي.

من المعروف ما كتبه الكواكبي(ت ١٩٠٢) عن الاستبداد ووضعه لطبائعه وصفاته، و لا نريد الخوض في هذا الموضوع لكثرة ما كتب عنه، ولكننا آثرنا ان نلم ببعض أفكار ونصوص الكواكبي التي توضح موقفه من الغرب ، لاعتقادنا بأهميتها في بناء علاقتنا مع الاخر.

يعتقد الكواكبي أن الاستبداد آفة وهذه الآفة تستشري لأسباب كثيرة أهمها: ضعف الأمة تجاه الحاكم وعدم وجود عقد بين الحاكم والشعب يلزم الحاكم باحترام حقوق شعبه، فضلاً عن وجود دور للأمة في اختيار ذلك الحاكم مع وجود بعض المتزلفين للحكام الذين جعلوا من أنفسهم سوطا يجلد به الحاكم شعبه وقد سماهم الكواكبي (المتمجدون)

رؤية الكواكبي لآفاق الغرب

د. علي عبد الهادي المرهج

وهؤلاء منهم القادة العسكريون الذين يستخدمون القوة لإخضاع الشعب لسلطة الحاكم، ومنهم المثقفون الذين يستخدمون الثقافة لتبرير أفعال الحاكم ، ومن رجال الدين(وعاظ السلاطين) وهؤلاء هم الأخطر كونهم يستخدمون الدين لغير أغراضه ويتخذونه سلاحاً للقبول بسلطة الظالم من قبيل (إن الحاكم ظل الله في الأرض)، لذلك نجد الكواكبي يعتقد بأن الاستبداد السياسي يستشري ويتسع حيث ما يوجد الاستبداد الديني لذلك يقول "متى وجد أحدهما في أمة جر الآخر إليه أو متى زال رفيقه وان صلح أي ضعف أحدهما صلح أي ضعف الثاني (ص ٣١) " بمعنى أن ضعف الاستبداد الديني يؤدي إلى ضعف الاستبداد السياسي .

نجد الكواكبي ونتيجة لما سبق ينظر باحترام وتقدير لكل حركات الإصلاح الديني في العالم ،لا سيما التي حصلت في الغرب ، فالبروتستانتية كما يعتقد مفكرنا ، بوصفها حركة إصلاح ديني كانت "اشد تأثيراً في الإصلاح السياسي والأخلاق من تأثير الحرية المطلقة السياسية في جمهور اللاتيين أي الفرنسيين والطليان والأسبانيين والبرتغاليين.. وان ما من امة أو عائلة أو شخص تنطع في الدين أي تشدد إلا واختل نظام دنياه وخسر أولاه وعقباه" (ص ٣١).

إن هذا الخلط أو الاشتراك بين الاستبداد الديني والاستبداد السياسي انعكس سلباً على رؤى العامة ، فكون لديهم اعتقاداً بان هناك كثيرا من الصفات المشتركة بين عظمة الخالق وجبروت المستبد وبعبارة الكواكبي "يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين في كثير من الحالات والأسماء والصفات، وهم هم ، ليس من شأنهم أن يفرقوا بين (الفعال المطلق)، والحاكم بأمره ، وبين (لا يسأل عما يفعل) وغير مسؤول ،وبين (المنعم) وولي النعم ، وبين (جل شأنه) وجليل الشأن وبناء عليه. يعظمون الجبابرة تعظيمهم لله ، ويزيدون تعظيمهم على التعظيم لله لأنه حليم كريم ولأن عذابه آجل غائب، وأما إنتقام الجبار فعاجل حاضر ."(ص٣٠).

لربما بنظرة بسيطة إلى هذه النصوص السابقة نستطيع أن نتبين مدى حرص الكواكبي على بناء مجتمع أهم مقوماته هي الإصلاح الديني واعتقاده بأهمية وضرورة ذلك الإصلاح ، كونه مدركا تماما ان المجتمع الذي يعيش فيه مجتمع يشكل الدين ركنا أساسيا في بناء نهضته ، وهو في الوقت نفسه مدرك لأهمية المقومات الأخرى ، مثل اللغة والعرق والتاريخ المشترك ، ولكنه يعتقد بأن نهضة هذا المجتمع لا يمكن أن تتم من دون الإصلاح الديني ، لان الدين كان سبباً رئيساً من أسباب نهضته في العصور السالفة ، وهذه النهضة التي أنجزتها الرسالة المحمدية كانت مبعثاً للتنوير في أوروبا ودول الغرب ، وما كانت الحضارة الغربية لتصل إلى ما وصلت إليه لو لم يكن الشرق الواسطة والحلقة المعرفية التي نقلت حضارة اليونان وصبتها في قالب حضاري جديد يحمل طابع الدين الإسلامي بشكله النهضوي الحواري الذي انفتح على حضارات الأمم الأخرى من غير عقدة في الحوار أو عقدة في معرفة علوم الحضارات التي سبقتنا.

لطالما كانت الرسالة الإسلامية دافعاً نهضوياً وبناء حضارياً وإصلاحا دينياً ، فقد وجدنا الكواكبي ، فضلاً عن كونه يعتقد بضرورة العودة إلى النبع الأصيل متمثلاً بالرسالة الإسلامية ،إلا إنه لا يجد مانعاً من الإطلاع على حركات الرقي والتقدم في الحضارات الأخرى، وكأنه يعيد لنا سيرة الفلاسفة المسلمين ، لاسيما الكندي وابن رشد اللذان طالبا بضرورة الإفادة من الأمم التي سبقتنا في التقدم ،لذلك نجد سيرة الكواكبي وكأنها استنهاض لهذه الرؤى ،وإعادة قراءة لهذا التاريخ في ضوء مستجدات العصر.

لكي يكون نقد الكواكبي للاستبداد الديني وعلاقته بالإستبداد السياسي أكثر نضجاً نجده يعود إلى الحضارة اليونانية ويستفيد من طروحاتها في بناء الوعي السياسي الذي يبتغيه للمجتمع العربي والإسلامي ،فهو يعتقد أن حكماء اليونان هم أول من استخدم الدين في الإصلاح السياسي "حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة باحيائهم عقيدة الاشتراك في الإلوهية ، أخذوها عن الآشوريين ومزجوها بأساطير بصورة تخصيص العدالة بإله والحرب بإله والأمطار بإله إلى غير ذلك من التوزيع ، وجعلوا لإله الآلهة حق النظارة عليهم ، وحق

الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم " ص٣٢ الأمر الذي دفع اليونانيين إلى مطالبة حكامهم بالنزول من مقام الإلوهية طالما إن الإله ليس له الحق بالتصرف بكل شيء، وجعلهم حكم الأرض شبيها بحكم السماء مبنياً على الاعتقاد بإنسانية الإنسان أولاً التي تجعل الحاكم مساوياً لأبناء شعبه ، الأمر الذي سهل عليهم بناء جمهوريات مثل أثينا و إسبارطة . وحكم الإسلام كما يعتقد الكواكبي ليس بعيداً عن ذلك إن كان فيه محاولة للتوفيق بين الديمقراطية والارستقراطية ،إلا إن القاعدة التي جاء بها النبي محمد (ص) "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" تجعل الإسَلام أقرب إلى الديمقراطية منه إلى الأرستقراطية اعتمادا على هذا النص، فكل مسلم سلطان عام و مسؤول عن الأمة في الوقت نفسه، وهذا هو مبتغى الديمقراطية التي تريد أن تجعل من الشعب حاكماً لنفسه (ينظر ص ٣٦) ، والدين برأي الكواكبي ليس العبادة وإنما هو "بذرٌ جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرساً طيباً نبت ونما ، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات ، أو أرضاً مغراقاً هاف ولم يثمر . (و يتساءل الكواكبي عن ماهية أرض الدين) أرض الدين هي تلك الأمة التي أعمى الاستبداد بصرها و بصيرتها وأفسد أخلاقها ودينها ، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك اللذين زيادتهما عن حدهما المشروع أضر على الأمة من نقصهما ... نعم، الدين يفيد الترقي الاجتماعي إذا صادف أخلاقاً فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهض الإسلام بالعرب، تلك النهضة التي نتطلبها منذ ألف عام عبثاً." . (ص٨٤).

إذا نظرنا إلى الدين بوصفه فاعلاً إيجابياً في تقدم الشعوب ، فإنه في الوقت نفسه من الممكن أن يكون عنصراً سلبياً في تأخر الشعوب ، وهذا ما لاحظه الكواكبي في قراءته لمقولة ماركس "الدين أفيون الشعوب" ، وهو يؤيد هذه المقولة حينما يصبح الدين "كالغيم يغشي نور الشمس" وهذا الأمر صحيح بالنظر إلى (الأديان الخرافية) بعبارة الكواكبي والتي لم تقف عند حد الحكمة ، "كالدين المبني على تكليف العقل بتصور إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد . لأن مجرد الإذعان بما لا يعقل برهان على فساد بعض مراكز العقل" ، أما الأديان المبنية على العقل المحض فتكون انفع للناس من الوقوع في الخرافة وأقوى مؤثر لتهذيب الأخلاق . (ينظر ص٨٩).

وهنا تكمن فائدة الدين أي حينما يكون مرادفا وموافقا للعقل وما وجود منكري الدين إلا لاعتقادهم بتعارض العقل مع الدين ولوجود من يتخذ الدين أداة للسلطة ومخدراً للشعوب ، وهذا نابع باعتقاد الكواكبي من "عدم إطلاعهم على دين صحيح ، مع يأسهم من إصلاح ما لديهم " (ص ٩٩) . وإذا أردنا أن نحقق نهضتنا المرجوة فيجب علينا أن نتخذ من الدين والعقل أداتين لنشر الوعي وذلك ما سبقتنا به الأمم لاسيما أوروبا وأميركا، ففضلاً عن الإصلاح الديني الذي حصل في أوروبا وأميركا على يد (مارتن لوثر) و(راموس) نجد أن العلم قد هداهم "لطرائق شتى وأصول راسخة في الاتحاد الوطني... فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها " (ص ١٠٦)، ونحن أكثر تميزاً من الغرب كما يعتقد الكواكبي لأن الدين كان جامعاً لا مفرقا لنا وسبباً من أسباب نهضتنا الأولى ، ولم يكن لدينا إكلوريوس دينيً كما كان في أوروبا. إن ما يميز الكواكبي عن غيره من المصلحين العرب المسلمين انه لم ينظر إلى الغرب بوصفه آخر يشكل عقدة في بناء الذات، بل نظر إلى الغرب على الرغم من كونه محتلاً للشرق على أنه مكمل حضاري ، وابتعد بشكل واضح في كتاباته عن الرؤية للغرب بوصفه عائقا للتقدم والنهضة ، وانصب جل جهده على نقد الذات بوصفها سببا أساسيا في قبول التخلف لاسيما قبولها بالاستبداد الذي بالخلاص منه تحل كل مشاكل التخلف في الشرق لذلك وضع عشر جمل رآها تشكل رأس الحكمة في كسر قيود الاستبداد والتخلص من التخلف وهذه الجمل هي:

١- ديني ما أظهر ولا أخفي.
٢- أكون حيث يكون الحق ولا أبالي.
٣- أنا حر وسأموت حراً.
٤- أنا مستقل لا اتكل على غير نفسي وعقلي.
٥- أنا إنسان الجد والاستقبال (المستقبل) لا إنسان الماضي والحكايات.
٦- نفسي ومنفعتي قبل كل شيء.
٧- الحياة كلها تعب لذيذ.
٨- الوقت غال عزيز.
٩- الشرف في العلم فقط.
١٠- أخاف الله لا سواه (ص١١١).

بقراءة بسيطة لهذه الجمل نجدها تدور كما ذكرنا سابقا حول بناء الذات واستنهاض الهمم عن طريق العلم والحرية والعمل والابتعاد عن التفكير بالماضي كونه يشكل عائقا (كما هو ملاحظ في رأي الكواكبي) عند العرب لان العربي يعيش الحاضر ويحمل على أكتافه الماضي فضلا عن دعوة الكواكبي إلى احترام الوقت واستغلاله بشكل مثمر فضلا عن دعوته لمخافة الله لا مخافة المستبد وكل ذلك يجعل الكواكبي باعتقادنا مفكراً يعيش هم المجتمع عبر قراءة معرفية تحليلية لواقع المجتمع لا قراءة آيديولوجية عقائدية تعيش عقدة الآخر فنجده يخاطب الشرق أولا والغرب ثانيا بالقول:

" رعاك الله يا شرق لا نرى من غير الدهر فيك ما يستوجب هذا الشقاق لبنيك ويستلزم ذلهم لبني أخيك .فلماذا قد أصبحت إذا انقطع عنك مدد أخيك بمصنوعاته يبقى أبناؤك عراة حفاة في ظلام، بل يمنيهم فقد الحديد بالرجوع إلى العصر النحاسي بل الحجري الموصوف بعصر التعفن"

" رعاك الله يا شرق بل رعى الله أخاك الغرب العائل بنفسه والعائل فيك ، وقاتل الاستبداد ،بل لعن الله الاستبداد المانع من الترقي في الحياة ، المنحط بالأمم إلى أسفل الدركات ألا بعداً للظالمين" "رعاك الله يا غرب وحياك وبياك ، قد عرفت لأخيك سابق فضله عليك فوفيت وكفيت وأحسنت الوصاية وهديت ،وقد اشتد ساعد بعض أولاد أخيك فهلا ينتدب بعض شيوخ أحرارك لإعانة أنجاب أخيك على هدم ذاك السور ، سور الشؤم والشرور ، ليخرجوا بإخوانهم إلى أرض الحياة ، أرض الأنبياء الهداة فيشكرون فضلك والدهر مكافأة" " يا غرب لا يحفظ لك الدين غير الشرق إن دامت حياته بحريته ، وفقد الدين يهددك بالخراب القريب فماذا أعددت للفوضويين إذا صاروا جيشا جرارا وماذا أعددت لديارك الحبلى بالثورة الاجتماعية ؟ هل تعد المواد المتفرقعة ، وقد جاوزت أنواعها الألف ، أم تعد الغازات الخانقة وقد سهل استحضارها على الصبيان" (ص١٠٨).

قواعد الخلاص من الاستبداد:

وضع الكواكبي ثلاث قواعد للخلاص من الاستبداد هي:

١- الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية
٢- الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج
٣- يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد (ص١٢٤).

لربما بنظرة بسيطة إلى هذه النصوص السابقة نستطيع أن نتبين مدى حرص الكواكبي على بناء مجتمع أهم مقوماته هي الإصلاح الديني واعتقاده بأهمية وضرورة ذلك الإصلاح ، كونه مدركا تماما ان المجتمع الذي يعيش فيه مجتمع يشكل الدين ركنا أساسيا في بناء نهضته

حركة التجديد الإسلامي:
عبد الرحمن الكواكبي

جمال البنا

يقف الكواكبي ما بين محمد عبده ورشيد رضا. لقد قدم القاهرة لينشر كتابيه "طبائع الاستبداد" و"أم القرى" فوصلها عام ١٨٩٩ وتوفى بها عام ١٩٠٢ . وخلال هذه الفترة الوجيزة. نشرت جريدة "المؤيد" كتاب "طبائع الاستبداد" على حلقات، ونشر كتاب "أم القرى" في "المنار" . وبهذين العملين اكتسب الكواكبي شهرة مدوية، وقد تضمنت هذه المدة أيضا سلسلة من الزيارات للعالم العربي والسواحل الأفريقية.

ولا تعود أهمية الكواكبي إلى مهاجمة الاستبداد فقد كان هذا لب دعوة الأفغاني، ولكن إلى إصداره كتابا خاصا بموضوع الاستبداد قام فيه بتحليل الاستبداد سياسيا أو دينيا، ودوافعه وأسبابه وطبائعه... الخ. فركز الاهتمام العام وبلور موضوع الاستبداد. وقد أعطى بعض الباحثين أهمية كبرى للكتاب، ولكن آخرين لم يصلوا إلى هذا المدى.

ولعل ما يؤخذ عليه أن طريقة التحليل أعطت الموضوع طابعا أكاديميا أفقده الحرارة، رغم إيمان المؤلف الذي كان يبتدى خلال بعض السطور ولعله لو طعم الكتاب بأمثلة من التاريخ أو مزج ما بين المنهج التحليلي والمنهج التاريخي لأعطى الكتاب حيوية وعمق صورة الاستبداد وجرائمه في حق الشعوب. وقد كشف باحث عن أهمية خاصة له عندما وجه الأنظار إلى الترجمة الفارسية له التي صدرت عام ١٩٠٧ وتأثيرها على أحد المراجع الشيعية البارزة وهو السيد محمد حسين النائيني وكتابه "تنبيه الأمة وتبرئه الذمة" الذي صدر سنة ١٩٠٩ والذي يماثل في روحه طبائع الاستبداد. وهو ما يعطي كتاب الكواكبي أهمية، وفي نظرنا أن كتاب "أم القرى" لا يقل أهمية عن "طبائع الاستبداد" لأنه قدم أول تصور "لأممية" إسلامية تفضل تصور جمال الأفغاني للجامعة الإسلامية، لأن الأفغاني كثوري كان يستهدف الدول، ولكن الكواكبي كان كاتبا، ومن ثم فإنه استهدف تكوين تنظيم جماعة تعمل لتحقيق الأمة الإسلامية، فكانت جمعية أم القرى التي وإن كانت أصلا فكرة، فهناك ما يدل على أن الكواكبي شرع في إيجادها بالفعل. وأنه رغم أنه اعتمد على الجماهير، فإنه لم يكن يرفض مساندة من الخديوي، أو غيره من نبلاء مصر الذين أبدوا تعاطفا كما يظهر من الصفحات الأخيرة لإحدى طبعات "أم القرى"، والعامل الحاسم أن الكواكبي عوجل في بدايات عمله، وأنه لإنجاز ضخم أن يتم عمله الحقيقي خلال ثلاث سنوات.

وقد اعتقد بعض القوميين العرب أن الكواكبي هو رائد القومية العربية وهذا ادعاء عريض فالكواكبي رائد وداعية إسلامي، وكان الإسلام هو لحمة دعوته وسداها، غاية الأمر أنه اعتبر العرب أقدر العناصر على فهم الإسلام بحكم اللغة التي يفهم بها القرآن. ولهذا المعنى جعل "أم القرى" مركزا رئيسيا لها. ومهما كانت عربية أم القرى، فإنها تعود إلى الإسلام أولا وأخيرا. ونقطع بأن الكواكبي كان يخالف الفكرة الضيقة للقومية العربية، أو الصورة التي دعا إليها حزب البعث أو ساطع الحصري.

جريدة الوفد المصرية تشرين الاول ٢٠٠٥

الاستبداد والأخلاق (للكواكبى)

يتحدث الشيخ الكواكبى فى هذا الفصل من كتابه طبائع الإستبداد عن العلاقة بين الإستبداد وأخلاق الأفراد والأمم فيقول :
الاستبداد يتصرَّف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيُضعفها، أو يُفسدها، أو يمحوها، فيجعل الإنسان يكفر بنعَم مولاه؛ لأنه لم يملكها حقّ الملك ليحمده عليها حقّ الحمد، ويجعله حاقداً على قومه؛ لأنهم عونٌ لبلاء الاستبداد عليه، وفاقداً حبّ وطنه؛ لأنَّه غير آمن على الاستقرار فيه، ويودُّ لو انتقل منه، وضعيف الحبِّ لعائلته؛ لأنه يعلم منهم أنَّهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يُضطرّون لإضرار صديقهم، بل وقتله وهم باكون أسيرُ الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه؛ لأنَّه لا يملك مالاً غير معرَّض للسّلب ولا شرفاً غير معرَّض للإهانة.

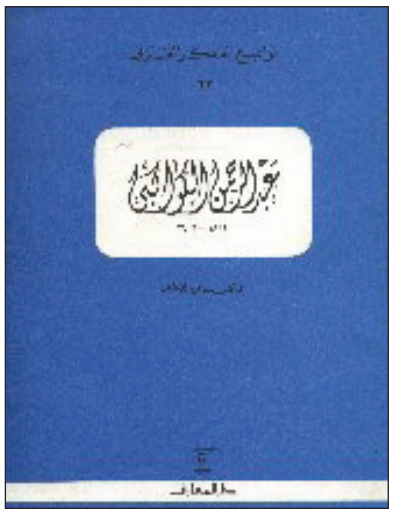

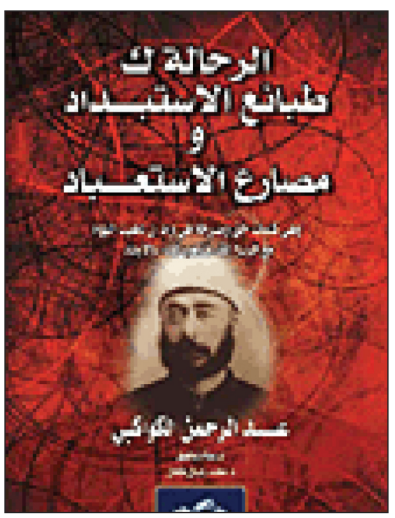

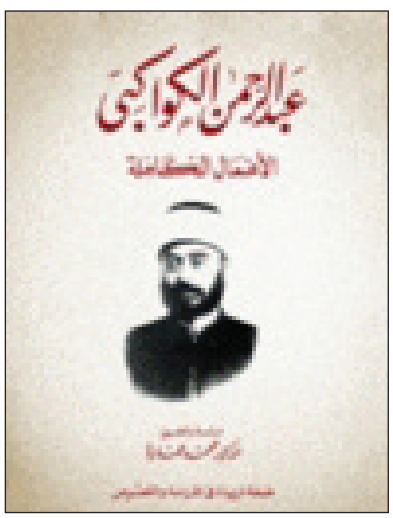

ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها.
وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذةً نعيم، غير بعض الملذّات البهيمية. بناءً عليه؛ يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإنْ كانت تعيسة، وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها؟! أين هو من الحياة الأدبية؟! أين هو من الحياة الاجتماعية؟!
أمَّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم، أو كشف عن بصيرته.
الاستبداد يسلب الرّاحة الفكرية، فيضني الأجسام فوق ضناها بالشقاء، فتمرض العقول، ويختلُّ الشعور على درجات متفاوتة في الناس والعوام الذين هم قليلو المادة في الأصل قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر، في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية. ويصل تسفُّل إدراكهم إلى أنَّ مجرّد آثار الأبَّهة والعظمة التي يرونها على المستبدّ وأعوانه تبهر أبصارهم، ومجرّد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم، فيرون ويفكرون أنَّ الدواء في الداء، فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب؛ حيث هي تجري على قدميها جاهدةً إلى مقرِّ حتفها.
ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة فضلاً عن الأجسام فيفسدها كما يريد، ويتغلّب على تلك الأذهان الضئيلة، فيشوش فيها الحقائق، بل البديهيات كما يهوى، فيكون مَثَلُهم في انقيادهم الأعمى للاستبداد ومقاومتهم للرشد والإرشاد، مثل تلك الهوام التي تترامى على النار، وكم هي تغالب من يريد حجزها على الهلاك. ولا غرابة في تأثير ضعف الأجسام على الضعف في العقول، فإنَّ في المرضى وخفّة عقولهم، وذوي العاهات ونقص إدراكهم، شاهداً بيّناً كافياً يُقاس عليه نقص عقول الأسراء البؤساء بالنسبة إلى الأحرار السعداء، كما يظهر الحال أيضاً بأقلّ فرق بين الفئتين، من الفرق البيّن في قوة الأجسام وغزارة الدّم واستحكام الصحة وجمال الهيئات.
ربما يستريب المطالع اللبيب الذي لم يُتعب فكره في درس طبيعة الاستبداد، من أنَّ الاستبداد المشؤوم كيف يقوم على قلب الحقائق، مع أنَّه إذا دقّق النظر يتجلى له أنَّ الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان يرى أنَّه

كم مكّن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييداً لاستبدادهم فاتّبعهم الناس. ويرى أنَّ الناس وضعوا الحكومات لأجل خدمتهم، والاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة، فقبلوا وقنعوا ويرى أنَّ الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أنّ طالب الحقِّ فاجرٌ، وتارك حقّه مطيع، والمشتكي المتظلِّم مفسد، والنّبيه المدقق ملحد، والخامل المسكين صالح أمين وقد اتَّبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولا، والغيرة عداوة، والشّهامة عتوّاً، والحمية حماقة، والرحمة مرضاً، كما جاروه على اعتبار أنَّ النِّفاق سياسة، والتحيُّل كياسة، والدناءة لطف، والنذالة دماثة. ولا غرابة في تحكُّم الاستبداد على الحقائق في أفكار البسطاء، إنما الغريب إغفاله كثيراً من العقلاء، ومنهم جمهور المؤرِّخين الذين يُسمّون الفاتحين الغالبين بالرِّجال العظام، وينظرون إليهم نظر الإجلال والاحترام لمجرّد أنَّهم كانوا أكثر في قتل الإنسان، وأسرفوا في تخريب العمران.ومن هذا القبيل في الغرابة إعلاء المؤرِّخين قدر من جاروا المستبدين، وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين وكذلك افتخار الأخلاق بأسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الأعوان الأشرار.
وقد يظنُّ بعض الناس أنَّ للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الحرّة، فيقولون مثلاً: الاستبداد يليّن الطباع ويلطِّفها، والحقُّ أنَّ ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة. ويقولون: الاستبداد يُعلِّم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبر، والحقُّ أنَّ هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن اختيار وإذعان ويقولون: هو يربّي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحقُّ أنْ ليس هناك غير انكماش وتقهقر ويقولون: الاستبداد يقلل الفسق والفجور، والحقُّ أنه عن فقر وعجز، لا عن عفّة أو دين ويقولون: هو يقلل التعديات والجرائم، والحقُّ أنَّه يمنع ظهورها ويخفيها، فيقلُّ تعديدها لا عدادها.
الأخلاق أثمار بذرها الوراثة، وتربتها التربية، وسُقياها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناءً عليه؛ تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر. ثم يضرب هذا المثل البديع ليوضح خطورة الاستبداد على الأمم نعم: الأقوام كالآجام، إن تُركت مهملة تزاحمت أشجارها وأفلاذها، وسقُم أكثرها، وتَغلَّب قويّها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحِّشة. وإن صادفت بستانياً يهمه بقاؤها وزهوها فدبّرها حسبما تطلبه طباعها قويت وأينعت وحسُنت ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة. وإذا بُليت ببستانيٍّ جدير بأن يسمّى حطّاباً لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخرّبها، وهذا مثل الحكومة المستبدّة. ومتى كان الحطّاب غريبا لم يُخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فخار ولا يلحقه منها عار إنّما همّه الحصول على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطّامة وهناك البوار. فبناءً على هذا المثال يكون فعلُ الاستبداد في أخلاق الأمم فِعل ذلك الحطّاب الذي لا يُرجى منه غير الإفساد

عن كتاب طبائع الاستبداد للكواكبي

منارات

التحرير
علي حسين

التصميم
مصطفى محمد

الاشراف اللغوي
محمد السعدي